فضيلة الدكتور

عبد الحليم محمود

الفضيل بن عياض

صوفي من الرعيل الأول



الفضيل بن عياض

صوفي من الرعيل الأول

الناشـــــر : **دار الرشـاد**

العنـــوان : ١٤ شارع جواد حسني ـ القاهرة

تليفـــون : ٣٩٣٤٦٠٥

رقم الإيداع : ٣٠٥٩ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : **977 - 5324 - 82 - 3**

الطبـــع : **عربية للطباعة والنشر**

العنـــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفـــون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣

الجمـــع : **أرمـس**

العنـــوان : ٣٢ شارع علي عبد اللطيف ـ مجلس الأمة

تليفـــون : ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الثانية : ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م (الأولى للدار)

مراجعة وفهارس : **محمد دياب**

خطوط : **لمعي فهيم**

غلاف : **وائل حمدان**

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الأطهار الطيبين، أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق ﷺ لم يكن يعتمد فى كتاباته على مجرد البحث الأكاديمى فى إسلامياته ومؤلفاته عن السادة الصوفية - رضوان الله عليهم - ولكنه كان، بالإضافة إلى ذلك، مطبِّقاً للفكرة التى يؤمن بها ، ومن كان كذلك يصل كلامه إلى القلب مباشرة، ويتأثر به القارئ ، ولعل دراسة متأنية لما كتبه عن الشخصيات الصوفية توضح أنه كان منفعلاً بها ومتفاعلاً معها، ويظهر ذلك بوضوح فى كتابه «**الحمد لله.. هذه حياتى**» فهو لم يكن مجرد سرد تاريخى أو ذاتى ، بل هو أيضاً استخراج لكثير من الأسس والمبادئ التى آمن بها وطبَّقها على نفسه قبل أن يطلب من الآخرين الاقتناع بها والعمل على تطبيقها .

لقد درس الإمام الأكبر عبد الحليم محمود ﷺ مذهب النَّصيين، ودرس علاقة اليقين بالعقل، ودرس المذاهب العقلية سواء فى الجو الإسلامى أو الغربى،وعن هذه الدراسات جميعاً، مع دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، يقول الإمام عبد الحليم محمود ﷺ:

« وانتهيت من دراسة الدكتوراه وأنا أشعر شعوراً واضحًا بمنهج المسلم فى الحياة وهو منهج الاتِّباع، إن ابن مسعود ﷺ يقول عن هذا المنهج كلمة موجزة كأنها إعجاز من الإعجاز: « **اتَّبعوا ولا تَبتدعوا فقد كُفيتم**» . . لقد كُفينا، وعلينا ـ إذن ـ الاتّباع ، وبعد أن وقر هذا المنهج فى شعورى، واستيقنته نفسى، أخذت أدعو إليه: كاتباً ومُحاضِراً ومدرساً، ثم أخرجت فيه كتابًا خاصّاً هو «**الإسلام والعقل** »، وكل ما كتبته عن التصوف والشخصيات الصوفية فإنما يسير فى فلك هذا المنهج «**منهج الاتِّباع**» ا هـ.

لقد اختبر الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الإسلام الطرق الكلامية والنصيَّة، فلم يجد الطريق الصحيح إلا فى العبودية والاتِّباع.

فكان من أمر الشيخ عبد الحليم محمود ﷺ أن أصبح هو الفضيل بن عياض وهو الإمام الغزالى وهو الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى، حتى وصل به الأمر أن امتزج امتزاجًا كاملاً بالمدرسة الشاذلية فكان قطبها ، ولُقِّبَ بأبى الحسن الشاذلى القرن العشرين ، ولُقِّبَ أيضًا بأبى التصوف فى العصر الراهن ، فلقد كان إليه ﷺ المرجع والفُتيا وريادة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث.

لقد كتب الإمام عبد الحليم محمود ﷺ هذا الكتاب عن الإمام الفضيل بن عياض ﷺ مبينًا الموقف الذى يجب أن يتخذه كل صوفى وكل داعية إلى الله تعالى، فهذا ليس حديثًا عن سيرة ذاتية

للإمام الجليل بقدر ما هو دراسة علمية وافية للطريق إلى الله . . في جانب من جوانب حياة صوفي من الرعيل الأول، من الذين أحبوا أن يَفْنَوا في الله سبحانه وتعالى، وأن يقوموا به، وأن يتخلقوا بأخلاقه . . أن تفنى شخصيتهم في إرادته تعالى، في حبه، في مرضاته . . أن يسترسلوا معه كما أحب، لا يكون لهم هوى في غير شريعته، ولا تكون لهم إرادة في غير ما أمر . . أن يذوبوا في محيط الإطلاق .

ولا أملك سوى أن أضرع إلى الله أن يهيِّئ لهذا التراث الإسلامي في كل عصر من يوضحه، ويجدّده، ويثريه، ويحييه . . بالبحث، وبالسلوك وبالعلم؛ حتى يكون في العالم الإسلامي - في كل وقت وزمن - من يمثلون قمم العلم ومكارم الأخلاق .

هذا . . وبالله التوفيق .

أ. د / **منيع عبد الحليم محمود**

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بجامعة الأزهر

الفصل الأول

حَياة الفُضَيل

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين، وبعد . .

فإننا كلما أخذنا في دراسة حياة صوفي من الصوفية، تذكرنا ـ في سرعة ـ الشِّبْليَّ رحمه الله، وقد سُئل :

لِمَ سُميت الصوفية هذا الاسم ؟

فقال: لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء، ولا تعلَّقت بهم.

لقد أحب الصوفية التخلص من الأسماء، ومن الأنيَّة. . لقد أحبوا أن يفنوا في الله سبحانه وتعالى: أن يقوموا به، وأن يتخلّقوا بأخلاقه، وأن تفنى شخصيتهم فيه: في إرادته، في حبه، في مرضاته. . أن يسترسلوا معه كما أحب، لا يكون لهم هوى في غير شريعته، ولا تكون لهم إرادة في غير ما أمر. . أن يذوبوا في محيط الإطلاق.

وهم لذلك ينأون عن الحديث عن أنفسهم، ويبتعدون عن ذكر صفاتهم الخاصة، وأحوالهم الفردية.

ومن أجل ذلك: لا تكاد تجد تاريخاً شخصياً للصوفية، ومن هنا فإننا نكاد لا نجد تاريخاً شخصياً للفضيل بن عياض رحمه الله.

ونحن نكتب هنا كلمات يسيرة نستخلصها من هنا وهناك، مما روى عن حياته:

إنه: **أبو علىّ، الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى.. ثم اليربوعى.**

إنه: عربى من قبيلة تميم..

ولد **بخراسان**، من ناحية مرو، بقرية يقال لها «فُنْدِين[1]» وكان أبوه معروفاً.. لقد كان معروفًا بخشية الله والخوف منه.

يقول سفيان بن عيينة، العالم المشهور:

« **ما رأيتُ أحدًا أخوفَ لله مِنَ الفُضَيل وأبيه** ».

وأحب هذا الوالد المؤمن أن ينشأ ابنه على غراره.. ولكن هذا الابن لم يحقق رغبة أبيه فى بواكير شبابه.. فقد انحرفت به الحياة ـ فيما يبدو ـ فى عهد مبكر من حياته.

ولكن جو الاستقامة الذى نشأ فيه، وجو الإيمان الذى تفتحت عيناه عليه، كان كامناً فى نفسه، لم يزل أثره، فكانت حياة الانحراف التى عاشها فى العهد الأول من شبابه حياة عابرة، لفترة مؤقتة، ثم تغلّب عليها جوهر فطرته الطاهرة ، وما لبث أن حصل له هذا الانقلاب المفاجئ الذى يهيّئه الله سبحانه لمن أحب من عباده، فينتشلهم به من البعد عنه إلى القرب منه.

يقول الفضيل بن موسى، كما يروى صاحب كتاب «تهذيب التهذيب»:

---

(١) بضم الفاء وسكون النون ودال مكسورة : من قرى مَرْو .

« كـان الفضـيل بن عيـاض، شَطَّارًا يقطع الطريق بين أبيـورد، وسرخس، وكـان سبب توبتـه أنه عشق جـارية، فبينمـا هو يرتقى الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]؟..

فلما سمعها قال:

«بَلَى يا ربُّ ـ قَدْ آن».

فرجع، فآواه الـليل إلى خربة، فإذا فيـها سابلة، فقال بـعضهم: نرتحل. وقال بعضـهم: حتى نصبح، فإن فضـيلاً على الطريق يقطع علينا..

قال:

«ففكرتُ، فقلتُ: أنا أسمعُ اسْمِى بالليل فى المعَاصِى، وقومٌ مِـنَ المسلمـيـن يَخافُـوننـى هَـا هُـنا، ومـا أرى اللـهَ سـَائقِـى إليهـم إلا لأرتدعَ.. اللهم إنِّى قـد تبتُ إليك، وجـعلتُ توبتـى مجـاورةَ البـيتِ الحرام».

لقد سمع الفـضـيل النداء الإلهى يدوى من أعماق نفســه، وسمعه متجاوبًا مع التالى لـلقرآن الكريم، بل ربما لم يكن هناك تالٍ، وإنما هو التطلع الكامن فى نفس الفـضيل إلى حـياة التـقوى والفـضيلة، والطهر النفسى والوجدانى.

---

(1) سورة الحديد: ١٦.

وتاب الفضيل توبة خالصة لوجه الله . . . ولكنه لم يذهب إلى مكة مباشرة ، وربما كان ذلك هيبة من البيت الحرام، أن يدخله ولمَّا يتأهَّب لدخوله، بعد . .

وما من شك في أن التوبة الخالصة، من كبريات المؤهلات لدخول البيت الشريف.

بيد أن الفضيل أحب أن يذهب إلى البيت وهو متسلِّح - مع الطهر - بالتوبة، وبالعلم . . إن هذا البيت قد زاد الله من تشريفه وتعظيمه، حينما اقتضت حكمته تعالى أن يجعله مكان البعثة المحمدية، حيث شهدت جدرانه محمداً ﷺ يطوف به، ويسير حوله، داعياً إلى الله وحده لا شريك له، منادياً: « **لا إله إلا الله** ».

وكانت هذه الكلمة تزلزل قواعد الشرك ، وتقع غُصَّة في قلوب المشركين . . وإن من حرمة هذا البيت - فيما يرى الفضيل - ألاَّ تَشُدَّ إليه الرحال، إلا وأنت على علم بما ينبغي أن تكون عليه فيه . . لابد - إذن - من العلم قبل الذهاب إليه.

أين يذهب ليتعلم، ولتكون توبته قائمة على أساس من المعرفة الصادقة، كما هي قائمة على أساس من الشعور النفسي الصادق ؟

لقد يَمَّمَ الفضيل وجهه شَطْرَ الكوفة.

يقول ابن سعد: « وقَدِمَ الكوفة وهو كبير ».

ولما حل الفضيل بالكوفة، أخذ ينهل من العلم نهلاً.

لقد أخذ يحضر نهاره على كبار أساتذة الحديث ـ على الخصوص ـ ويسهر ليله فى استذكار ما سمع وتعلم.

وكان الفضيل صاحب ذاكرة قوية، وفطنة نَفَّاذة.. وكانت عنده المؤهلات التى لا يَنْبُغُ المحدِّث إلا بها:

لقد كان قوىَّ الذاكرة ، بحيث يسهل عليه حفظ السند والمتن.. وكان فطنًا بحيث يتصرف فى مشكلات العلم بأسلوب ذكى، وكان مخلصاً لتراث أشرف الرسل صلوات الله وسلامه عليهم..

وكان متعطشاً للمعرفة حريصاً عليها،وكان حرصه لما رأى فى المعرفة من متعة ولذة.. ولأنه كان نادماً على فترة أمضاها فى البعد عن هذا الجو، فقد حرص حرصًا شديدًا على استدراك ما فاته..

وبرع الفضيل فى الحديث:

ونقله الحديث من جو التوبة الساذجة إلى جو التوبة التى شَفَّتْ بالحديث، وسَمَتْ بمعرفة كيفية المتابعة لرسول الله ﷺ .

لقد أصبحت توبته على بصيرة..

ووجَّهته هذه المعرفة، وهذه التوبة العارفة إلى العبادة بأسلوب المتابعة الدقيقة لرسول الله ﷺ ، ونَعِمَ بعبادته فاستغرق فيها، ونعم بالمعرفة فاستغرق فيها..

ثم لما رأى نفسه أهلاً للذهاب إلى مكة ، ومجاورة البيت الحرام؛ سافر إليها، واستقر فيها إلى أن مات بها فى أول سنة سبع وثمانين ومائة، عن نحو ثمانين سنة.. ودُفن بباب المصلَّى.

ولقد عاش الفضيل بعد توبته عيشة متزنة، فقد تزوج، وكان له أبناء، منهم: ابنه « **عليّ** » . وقد كان الفضيل مَعنياً به، يتتبع أخباره، ويوجّهه بطريق مباشر أو غير مباشر :

فمرة قيل له : إن علياً يقول : وددت أنى بمكان أرى الناس ولا يرونني . .

فقال : « **ويْحَ عليّ، أفلا أتمّها فقال : لا أراهُم ولا يَرونني** » . .

ويبدو أن الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى عليًا مرة فى زَهْو وفى كِبْر، فأخذ يحدّ من غَرَبه [1] ، ومما قاله له:

«**لعلّكَ ترى أنك شيء؟ .. الجُعْلُ أطوعُ لله منك**»..

وكان الفضيل يُكنى به، فيقال له: « يا أبا على » . .

وكان للفضيل ابن آخر هو « **أبو عبيدة** » . . وكان الفضيل يحبه، ويقول:

« **إنى لأُحبُّه، وأُحبُّه لأنه جاءنى على كِبَر** » .

***

ويبدو أن الفضيل لم يكن ثرياً، وأن حياته ما كانت حياة رخاء . .

ولكن الذين يؤرّخون له، يتحدثون عن خادم له . . ولقد روى هذا الخادم الكثير عن حياة الفضيل الدينية، وكان خادمًا عالماً كتسب من

---

(١) أغْرَبَ : جاء بالشيء الغريب .

صحبة الفضيل الكثير من المعرفة: إنه **إبراهيم بن الأشعث**، الذى تفانى فى حب الفضيل وفى خدمته، والذى ندين له بكثير مما نعرف عن الفضيل..

ويبدو أن هذا الخادم العالم لم يكن الوحيد عند الفضيل..

فقد كان للفضيل جارية سوداء، هى التى قالت **لهارون الرشيد** - حينما كان عند الفضيل:

« يا هذا، لقد آذيتَ الشيخَ منذ الليلة، انصرفْ يرحمك الله »..

وكان للفضيل حمار يركبه.. وكان الفضيل يقول:

« إنى لأَعْصِى اللهَ فأعرفُ ذلكَ فى سُوء خُلق خَادِمى وحِمَارى».

ويذكر صاحب « صفة الصفوة » أنه كان يقول:

« أصْلَحُ ما أكونُ، أفقرُ ما أكونُ، وإنِّى لأَعْصِى اللهَ فأعرفُ ذلكَ فى خُلق حِمَارى وخَادِمى »..

أى: أنه ربما صدر منه عمل ليس من أعمال المقرَّبين، صدر منه دون شعور به، ولا انتباه له، فيرجع إلى نفسه - حينما يرى سوء خُلق خادمه أو حماره - يحاسبها على ما فعلت ليستغفر ويتوب.

فإذا أردنا أن نعرف - الآن - مصدر الرزق فى حياة الفضيل، فإن الإمام الشعرانى ﷺ يقول عن الفضيل:

« وكان ﷺ يَسْقى على الدوام، وينفق من ذلك على نفسه وعياله ».

ويبدو أن الخادم أو الخدم ، إنما كانوا من أجل معونته على السَّقْى، ويبدو أن الحمار كان من أجل ذلك أيضاً.

والأمر المؤكَّد: هو أن الفضيل لم يكن مُترفاً فى حياته، وإنما كان يعيش من عمل يده، من كسب حلال طيب.

يقول ابن حِبَّان عنه :

« أقام بالبيت الحرام مُجاوراً، مع الجهد الشديد، والورع الدائم، والخوف الوافر، والبكاء الكثير، والتخلِّي بالوحدة، ورفض الناس، وما عليه من أسباب الدنيا، إلى أن مات بمكة ».

كان الفضيل يعيش على هذا النَّسَق، مع أن الدنيا كانت تُعرَض عليه فى صورة الآلاف من الدنانير، من الملوك والأمراء والأثرياء، هدايا، فيرفضها . . إنه يريد ألاَّ يقذف إلى جوفه إلا باللقمة الحلال، ويذكر في ذلك قصة سعد رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [1] . . فقام سعد بن أبي وقاص ، فقال:

يا رسول الله : ادعُ الله أن يجعلني مُستجابَ الدعوة.

فقال:

(١) سورة البقرة : ١٦٨ .

« يا سعدُ، أطِبْ مَطعَمَك تكُنْ مُستجابَ الدعوة، والذي نَفْسُ محمد بيده إنَّ الرَّجلَ ليقذفُ اللقمةَ الحرامَ في جَوْفِه، ما يُتَقَبَّلُ منهُ أربعينَ يوماً، وأيّما عبدٍ نَبَتَ لَحمُهُ من السُّحْتِ والرِّبا، فالنارُ أَوْلَى به » .

ويذكر - أيضاً - قوله ﷺ :

« يا أيُّها الناس ! .. إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا ، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمرَ به المرسَلين ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [1] .

وقال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[2] .

ثم ذَكَرَ الرجلَ يُطيلُ السفرَ أشعثَ أغبرَ ومطعمُه حرامٌ ومَشربُه حرامٌ، ومَلبَسُهُ حرامٌ وغُذِّيَ مِنَ الحَرَامِ ، يمدُّ يديهِ إلى السَّماءِ ، يا ربُّ يا ربُّ ، فأنَّى يُستجابُ لذلك »[3].

وكان الفضيل راضياً بحياته الفقيرة . .

---

(١) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٢ .

(٣) رواه مسلم، والترمذي وقال : حسن غريب .

إنه ـ على حَدِّ تعبيره ـ أصلح ما يكون . . أفقر ما يكون . .

بل ، لقد كان الفضيل شاكراً لله سبحانه على هذه الشّدة فى حياته . . ويرى أن ذلك فضل من الله عظيم . . إنه يقول:

«أجَعْتَنى وأجَعْتَ عِيالى ، وتَركتَنى فى ظُلَمِ الليلِ بلا مِصْباحٍ، وإنَّما تفعلُ ذلكَ بأوليائك ، فبأىِّ منزلة نلتُ هذا منكَ ؟ . . ».

والتزم الفضيل ـ فى حياته ـ الشريعة التزاماً كاملاً، واقتدى برسول الله ﷺ اقتداءً تامّاً بقَدْر استطاعته . .

إنه يقول: « **اسلُك الحياةَ الطَّيِّبةَ: الإسلامَ والسُّنَّةَ** »، ولا تخرج الحياة الطيبة ـ فى نظره ـ عن ذلك . . إنها الاتّباع . .

انظر ـ مثلاً ـ إلى موقفه من الفرائض والنوافل:

يقول إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« لَنْ يتقرَّبَ العبادُ إلى الله بشىءٍ أفضلَ من الفرائضِ ..الفرائضُ رءوسُ الأموالِ ، والنوافلُ الأرباحُ »..

ويسير الفضيل ـ فى هذا ـ متناسقاً مع الحديث الشريف الذى يبيِّن كيفية القرب من الله، ويبيِّن السبيل إلى حب الله للعبد . . هذا الحديث الجميل الذى رواه الإمام البخارى رضي الله عنه ـ بسنده ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه . . قال:

« إنَّ الله قال : مَنْ عَادَى لى وَلِيّاً فقد آذنتُه بالحربِ ، وما تقرَّبَ إلىَّ عبدى بشىءٍ أحبَّ إلىَّ مما افترضتُه عليهِ ، وما يزال عبدى

يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذى يَسمعُ به ، وبَصَرَه الذى يُبصرُ به ، ويدَه التى يَبطشُ بها ، ورجلَه التى يَمشى بها، ولئنْ سَألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذَ بى لأعيذنَّه ، وما تردّدتُ عن شىء أنا فاعلُه ، تردُّدى عَنْ نَفْسِ المؤمنِ ، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مَساءتَهُ» .

وينصح الفضيل بالفرار من الناس إلى الله، فيقول:

«فِرَّ مِنَ الناسِ غيرَ تاركٍ للجَمَاعة » .

ويحمل الفضيل على أصحاب البدع حملات متكررة ، يروى عنه عبد الصمد بن يزيد قوله:

«مَنْ أحبَّ صاحبَ بِدْعةٍ ، أحبطَ اللهُ عَمَلَهُ ، وأخرجَ نورَ الإسلامِ مِنْ قلبهِ »..

ومن كلامه فى أصحاب البدع:

«مِنْ علاماتِ البَلاَءِ أنْ يكونَ الرجلُ صاحبَ بِدْعةٍ» .

«نظرُ المؤمنِ إلى المؤمنِ جلاءُ القلبِ ، ونظرُ الرجلِ إلى صاحبِ البِدْعةِ يُورِثُ العَمَى » ..

«مَنْ أعانَ صَاحِبَ بِدْعةٍ ، فَقَدْ أعانَ على هَدْمِ الإسلامِ ».

«لا يرتفعُ لصَاحِب بِدْعة ـ إلى الله ـ عملٌ» .

«إذا رأيتَ مُبتدعًا فى طريقٍ ، فخذْ فى طريقٍ آخرَ» .

ويحث الفضيل ـ فى صورة نبيلة ـ على ألا يخوض الناس فى الصحابة، ويرى أن الخوض فيهم من البدع التى يبغضها الله تعالى، ويقول فى ذلك:

« إنى أحبُّ من أحبَّهم الله، وهم الذين يَسْلَمُ منهم أصحابُ محمد ﷺ ،وأُبغِضُ مَنْ أبْغَضَهُ اللهُ ، وهم أصحابُ الأهواءِ والبِدَع » .

ويروى عبد الصمد بن يزيد، عن الفضيل ، قولاً يحدِّد ـ فى كثير من الزوايا ـ موقف الفضيل من أصحاب البدع، فيقول:

سمعت الفضيل يقول:

«لَئِنْ آكُلُ عندَ اليَهُودىِّ والنَّصْرانىِّ أحَبُّ إلىَّ مِنْ أن آكُلَ عندَ صاحبِ بِدْعةٍ ، فإنِّى إذا أكلتُ عندهما لا يُقتدَى بى ، وإذا أكلتُ عندَ صاحبِ بدعةٍ ، اقتدَى بى الناسُ » .

«أُحبُّ أنْ يكونَ بينى وبينَ صاحبِ البدْعةِ حِصْنٌ من حديدٍ » .

« عَمَلٌ قليلٌ فى سُنَّة ، خيرٌ مِنْ عَمِلِ صاحب بدْعةٍ » .

« مَنْ جلسَ مع صاحب بِدْعةٍ لَمْ يُعْطَ الحكمةَ » .

« ومَنْ جلسَ إلى صاحب بدعة فاحْذَرْهُ » .

« صَاحِبُ بدْعة لا تأمَنْهُ على دينكَ ، ولا تُشاوِرْهُ في أمْرِكَ ، ولا تجلسْ إليه ، فمَنْ جلس إليه ورَّثَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العَمَى » .

« إذا علِمَ اللهُ مِنْ رجلٍ أنه مُبْغِضٌ لصاحبِ بدعةٍ ، رجوتُ أنْ يغفرَ الله له ، وإنْ قلَّ عَمَلُه ، فإني أرجو له .. لأن صاحبَ السُّنَّةِ يعرضُ كلَّ خيرٍ ، وصاحبَ البدعةِ لا يرتفعُ له ـ إلى اللهِ ـ عملٌ ، وإنْ كثُرَ عمَلُه ».

قال: وسمعت الفضيل يقول:

«إنَّ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ملائكةً يطلبونَ حلَقَ الذِّكْرِ فانظرْ معَ مَنْ يكونُ مَجْلِسُكَ ؟ لا يكونُ معَ صاحبِ بدعةٍ ، فإنَّ الله تعالى لا ينظرُ إليهم » .

«عَلامةُ النِّفاقِ أنْ يقومَ الرجلُ ويقعدَ معَ صاحبِ بدعة» .

«أدركتُ خيارَ الناسِ ، كلُّهم أصحابُ سُنَّةٍ ، وَهُمْ ينْهَونَ عَنْ أصحابِ البدعةِ » .

قال: وسمعت فضيلاً يقول:

«إنَّ لله عباداً يُحيي بهم العبادَ والبلادَ ، وَهُمْ أصحابُ سُنَّة» .

أما موقف الفضيل من السلف، فهو موقف رجل الشريعة الصادق:

عن حسين بن زيد قال: سمعت فضيلاً يقول:

«ما علَى الرجُل إذا كانَ فيه ثلاثُ خصَال، إذا لَمْ يكُنْ صَاحِبَ هَوًى، ولا يَشْتُمُ السَّلَفَ، ولا يُخَالِطُ السُّلْطَان».

وقال مؤمل بن إسماعيل: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

«إذا نظرتُ إلى رجلٍ من أصْحَاب أهل البيت، كأنِّي نظرتُ إلى رجلٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ»..

وذُكِرَ الصحابة عند الفضيل فقال:

«اتَّبِعُوا ـ فَقَدْ كُفِيتُمْ ـ: أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب».. ﷻ أجمعين.

وبعد.. فلقد سارت حياة الفضيل على هذا النَّسَق:

توبةٌ خالصةٌ نَصُوح، حياةٌ ماديةٌ مُجْهِدة، ولكنها راضيةٌ حامدة، اتِّباعٌ دقيقٌ لسُنَّة رسول الله ﷺ، وبُغْضٌ واضحٌ لأصحابِ البدع.

***

الفصل الثانى

الفُضَيل وأصْحَاب السُّلْطَان(*)

(*) مما يتصل بحياة الفضيل موقفه من أصحاب السلطان ، وكان من الممكن أن نجعله جزءًا من الفصل السابق ، ولكنَّا رأينا من الأوفق جعله فصلاً مستقلاً .

يقول تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [١].

ويقول سبحانه:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [٢]..

الملوك والصوفية، النعيم المادى والنعيم الروحى، الترف المترف والزهد الزاهد، من ينظرون إلى الأرض ومن ينظرون إلى السماء، من يريدون العاجلة ومن يريدون الآخرة، حرث الدنيا وحرث الآخرة.

إنها أطراف تتعارض وتتصارع، وهى قائمة على مر الزمن لا تهدأ ولا تفتُر. وإن فى المجتمعات - قديماً وحديثاً - مَنْ يسيرون وراء النزغات والغرائز، ومن يرتفعون بأنفسهم على النزغات والغرائز.

وإن لجهاد النفس - من أجل تزكيتها - مكانة كبرى فى الأجواء الدينية:

---

(١) سورة الإسراء: ١٨ - ٢٠.

(٢) سورة الشورى: ٢٠.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [1] . .

والنفس الإنسانية ـ بطبعها ـ ميَّالة إلى فتنة الدنيا :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [2] . .

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [3] . .

والصوفية يمثلون - أقوى وأظهر ما يكون التمثيل - التجرُّد إلى الله، وإرادة الآخرة . .

إنهم قد تحقَّقوا بقوله تعالى :

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [4] . .

وطلبوا الباقيات الصالحات . .

وهم يرون فى الناس تَطلُّعاً إلى الدنيا فى أيدى الملوك والأمراء وأصحاب السلطان، ويرون تهافت الناس عليهم، وذِلَّتهم فى سبيل شهواتهم، وأهوائهم، من جاه أو سلطان، أو مال أو منصب : يراؤون

---

(١) سورة الشمس : ٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ .

(٣) سورة الكهف : ٤٦ .

(٤) سورة الحديد : ٢٣ .

ويتزلَّفون، ويتملَّقون ويخضعون، ويكذبون وينافقون من أجل عَرَضٍ زائلٍ أو جَاهٍ يَفْنَى . .

ويحاول الصوفية ـ فى كل زمن ـ أن يقودوا الناس إلى الله:

يقودوا أصحاب السلطان بالوعظ والنصيحة إلى الله.

ويقودوا الشعب بالوعظ والنصيحة ، والقدوة الحسنة إلى إيثار الآخرة على العاجلة.

ولقد كان للفضيل ﷺ فى هذا المجال أثر مشكور محمود. . ولقد كان الفضيل يتجه ـ بنصحه ـ إلى الملوك، وإلى العلماء، وإلى عامَّة الشعب. .

لقد كان يقول لعامَّة الشعب:

«لَئِنْ يَدْنُو الرَّجُلُ مِنْ جِيفَةٍ مُنْتِنةٍ خَيْرٌ لهُ مِنْ أن يَدْنُوَ إلَى هَؤلاءِ » .

يعنى: أصحاب السلطان.

وكان يقول:

«رَجُلٌ لا يُخَالِطُ هَؤلاءِ ولا يَزِيدُ علَى المكتُوبةِ أفْضَلُ عِنْدَنا مِنْ رجُلٍ يقُومُ الليل ، ويَصُومُ النَّهَارَ ، ويَحُجُّ ، ويَعْتَمِرُ ، ويُجَاهِدُ فى سَبِيلِ اللهِ ، ويُخَالِطُهُم » .

ويتجه إلى العلماء، فيبين لهم وضعهم الصحيح، قائلاً:

«لَوْ أَنَّ أهْلَ العِلْمِ زَهِدُوا فى الدُّنيا ، لَخَضَعَتْ لَهُمْ رِقَابُ الجبَابِرَةِ،

وانقادت الناسُ لهم ، ولكنْ بَذلُوا علْمَهم لأبناءِ الدُّنيـا ليصيبُوا بذلكَ ممـا فى أيديهم ، فَذَلُّوا وهانوا علَى الناس .. ومِنْ عـلامَةِ الزُّهَّاد : أنْ يَفرحُوا إذا وُصِفُوا بالجَهْلِ عندَ الأُمراءِ ومَنْ دَانَاهُمْ » ..

ولقد كان الفضيل يخالط سفيـان بن عيينة العالم الشـهير، فكان كلما التقى به يوجِّـه إليه النصح .. ولقد جلس إليه سفيـان بن عيينة يوماً، فقال له :

«كُنْتُمْ معاشرَ العُلمـاءِ سُرُجًا للبلادِ يُسْتَضـاءُ بِكُم .. فَصِرتُمْ ظُلْمَةً .. وكُنتمْ نُجومًا يُهْتَدَى بِكُم ، فَصِرتُم حيرةً .. أما يَستحى أحدكُمْ مِنَ اللهِ إذا أتَى إلى هؤلاءِ الأمراء ، وأخذَ مِنْ مالهِم وهو لا يعلمُ مِنْ أينَ أخذُوه ؟ .. ثـم يسندُ بعدَ ذلك ظَهْـرَه إلى مِحْـرابٍ ويقول : حـدَّثنى فلانٌ عن فلان» .

فطأطأ سفيان رأسه ، وقال : « نستغفرُ الله ، ونتوبُ إليه » ...

وكان إذا اجتمع حوله العلماء يوماً، قال لهم:

«مَـا لَكُمْ وللمُلوكِ ؟ .. مـا أعْظَمَ مِنَّتَهُم عَلـيكُم .. قد تَركُـوا لَكُمْ طَرِيقَ الآخرة ، فاركبُوا طريقَ الآخِـرة .. ولكنْ لا تَرْضَوْنَ ، تَبيعونَهم الدُّنيا ، ثُمَّ تُزَاحِمُونَهم عَليها.. ما يَنبغِى لعَالمٍ أنْ يَرضَى هذا لنفسه ».

ولقد كان للفضيل جولات مع هارون الرشيد، ولقد كان لهارون الرشيد جولات مع الفضيل..

لقد كان في الرشيد سحر الدنيا، وكان قلبه ـ مع ذلك ـ يتفتَّح للعظة الخالصة خارجة من قلب مؤمن.

لقد كان يملك أسباب النعيم الحسِّي، في إسراف مُسرف.. وكان يتملَّكه أحياناً ـ خوفُ الله، فيغمره إحساس ديني عميق، وتفيض عَبَراته.

ولقد كان بهذا الشعور الديني يُجِلُّ الذين أخلصوا وجوههم لله، ويتقبَّل نُصحهم، بل ويهابهم ويقدِّرهم.

روى النضر بن شميل قال: سمعت هارون الرشيد يقول:

«ما رأيتُ في العلماءِ أهْيَبَ مِنْ مالكٍ، ولا أوْرَعَ مِنَ الفُضَيل».

ومن طرائف الفضيل مع الرشيد أن قال له الرشيد يومًا، متعجباً من زهده: مَا أَزْهَدَكَ ؟

فقال له الفضيل:

ـ « **أنتَ أَزْهَدُ مِنِّي** »..

قال: وكيف ذلك ؟

قال: « **لأني أزهدُ في الدنيا وهي فانيةٌ، وأنت تزهدُ في الآخرة مع أنها باقية** ».

وكان هارون يتقبَّل نُصحه عن طيب نفس، بل ويطلب منه النصح

كلما التقى به.. وما كان الفضيل يسعى إليه، وإنما كان هارون يطلب الفضيل أو يسعى إليه فى بيته.

ونروى الآن بعض القصص التى تبين مكانة الفضيل من هارون، ومسلك الفضيل بالنسبة للرشيد.

يقول سفيان بن عيينة:

ـ دعانا هارون الرشيد، فدخلنا عليه.. ودخل الفضيل آخرنا، مُقَنَّعاً رأسه بردائه، وقال لى:

« يا سفيانُ، أَيُّهُمْ أميرُ المؤمنين ؟ ».

فقلت : هذا.. وأومأتُ إلى الرشيد.

فقال له:

ـ **«يا حَسَنَ الوَجْه : أنتَ الذى أمْرُ هذه الأُمَّةِ فى يدكَ وعُنُقِكَ.. لقد تقلَّدتَ أمراً عظيماً ».**

فبكى الرشيد.. ثم أتى لكلٍّ مِنَّا بِبَدْرَةٍ [1].. فكلٌّ قَبِلَها إلا الفضيل، فلاطفه الرشيد وألحَّ عليه، فاستعفاه منها..

وبعد الخروج قال له ابن عيينة:

هلاَّ أخذتها وصرفتها فى أبواب البِرِّ ؟..

قال ابن عيينة :

فأخذ بلحيتى، ثم قال:

---

(١) كيس فيه ألف، أو عشرة آلاف درهم، أو سبعة آلاف دينار.

« يَا أبا مُحمَّد .. أنتَ فَقيهُ البَلَدِ، وتَغلطُ بمثْلِ هَذا الغَلَط ؟ لَوْ طَابتْ لأولئكَ لطابتْ لى » .

أما القصة المستفيضة التى حدثت للفضيل مع هارون الرشيد، والتى رواها ابن الجوزى، وروتها «الحلية»، ورواها الإمام الكبير محيى الدين بن عربى ، ورواها غير هؤلاء فهى كما يلى:

حدَّث الفضل بن الربيع قال:

« حَجَّ أمير المؤمنين ، فأتانى، فخرجت مسرعاً.. فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلتَ إلىَّ أتيتك.

فقال: وَيْحكَ.. قَدْ حَاكَ فى نَفسى شىء، فَانظرْ لى رجلاً أسأله..

فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة.

فقال: امْضِ بنا إليه.

فأتيناه، فقرعنا الباب، فقال : من ذا ؟

قلت: أجِبْ أمير المؤمنين.

فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إلىَّ أتيتك.

فقال: خُذْ لما جئناك له ،رحمك الله.. فحادثه ساعة ،ثم قال له: عليك دَيْن ؟

فقال: نعم.

فقال: أبا عباس، اقْضِ دَيْنَه.

فلما خرجنا قال: ما أغْنَى عنى صاحِبُك شيئاً. انظر لى رجلاً أسأله.

قلت: ها هنا عبد الرزاق بن همام.

قال: امْضِ بنا إليه.

فأتيناه، فقرعنا الباب، فخرج مسرعاً، فقال: من هذا ؟

قلت: أجِبْ أمير المؤمنين.

فقال: يا أمير المؤمنين.. لو أرسلتَ إليَّ أتيتك.

فقال: خُذْ لما جئناك له.

فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دَيْن ؟

قال: نعم.

قال: أبا عباس.. اقْضِ دَيْنَه.

فلما خرجنا قال: ما أغْنَى عنى صَاحِبُك شيئًا.. انظرْ لى رجلاً أسأله.

قلت: ها هنا الفضيل بن عياض.

قال: امْضِ بنا إليه.

فأتيناه.. فإذا هو قائم يصلِّى، يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب.. فقرعت الباب.. فقال: من هذا ؟

قلت: أجِبْ أمير المؤمنين.

فقال: **«ما لى ولأمير المؤمنين ؟»**.

فقلت: سبحان الله.. أما عليك طاعة ؟

فقل: **«أليس قد روى عن النبى ﷺ، أنه قال:**

«لَيْسَ لِلمُؤمنِ أنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ».

ثم نزل، ففتح الباب.. ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السِّراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت.

فدخلنا، فجعلنا نجول بأيدينا، فسبقت كَفُّ هارون - قبلى - إليه.

فقال: « يا لها من كفٍّ.. ما ألْيَنها إنْ نَجَتْ غداً من عذاب الله - عز وجل ».

فقلت فى نفسى: ليكلمنَّه الليلة بكلام من قلب تقىٍّ.

فقال له: خُذْ لما جئناك له، رحمك الله.

فقال:

« إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة، دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حَيْوَةَ فقال لهم: «إنى قد ابتُليتُ بهذا البلاء، فأشيروا علىَّ»..فَعَدَّ الخلافةَ بلاءً، وعَدَدْتَها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله:

« إن أردتَ النجاةَ من عذابِ الله، فَصُمِ الدنيا، وليكن إفطارُك منها الموت».

وقال له محمد بن كعب:

«إن أردتَ النجاةَ من عذاب الله، فليكنْ كبير المؤمنين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً.. فوقِّرْ أباك، وأكرمْ أخاك، وتَحنَّنْ على ولدك».

وقال له رجاء بن حيوة:

« إن أردتَ النجاةَ غداً من عذاب الله ، فأحبَّ للمسلمين ما تُحبُّ لنفسكَ ، واكرهْ لهم ما تكره لنفسكَ، ثم مُتْ إذا شئتَ ».

وإنى أقول لك:

« إنى أخافُ عليكَ أشدَّ الخوفِ يوماً تزلُّ فيه الأقدام .. فهل معك ـ رحمك الله ـ مثل هذا ؟ أو من يشير عليك بمثل هذا ؟ ».

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا حتى غُشِيَ عليه.

فقلت له: ارفُقْ بأمير المؤمنين..

فقال: «يا بن الربيع .. تقتلهُ أنت وأصحابُك، وأرفقُ به أنا ؟».

ثم أفاق الرشيد، فقال له: زِدْنِى، رحمك الله.

فقال:

«يا أميرَ المؤمنين : بَلَغَنِى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكى إليه، فكتب إليه عمر:

« يا أخى .. أذكِّرك طولَ سَهَرِ أهْلِ النارِ، مع خُلود الأبد.. وإياك أن ينصرفَ بِكَ مِنْ عندِ اللهِ، فيكونَ آخرَ العَهْد، وانقطاعَ الرَّجَاء ».

قال:

« فلمَّا قرأ الكتاب طَوَى البلاد ، حتى قَدِم على عمر بن عبد العزيز، فقال له: ما أقْدَمَك ؟ قال: خلعتَ قلبى بكتابك، لا أعودُ إلى ولاية ، حتى ألْقَى الله عز وجل »..

قال: فبكى الرشيد بكاء شديدًا ، ثم قال له:

زِدْنى، رحمك الله..

فقال:

« يا أميرَ المؤمنين !.. إنَّ العَبَّاسَ عَمَّ المصطفى ﷺ ، جاء إلى النبى ﷺ ، فقال: يا رسول الله: أَمِّرْنى على إمارة . فقال له النبى ﷺ :

« إنَّ الإمَارةَ حَسْرةٌ ونَدَامَةٌ يومَ القِيَامة ، فإنِ استَطَعْتَ أنْ لا تكونَ أميرًا فافعلْ » .

فبكى هارون بكاء شديدًا، ثم قال له: زِدْنى، رحمك الله.

قال:

« يا حَسَنَ الوَجْه، أنتَ الذى يَسألكَ الله ـ عز وجل ـ عن هذا الخَلْق يوم القيامة، فإن استطعتَ أن تقى هذا الوجه من النار، فافعلْ .. وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غشٌ لأحدٍ مِنْ رَعِيَّتك، فإن النبى ﷺ قال:

« مَنْ أصبحَ لهم غَاشاً لم يَرِحْ رائحةَ الجنَّة ».

فبكى هارون، وقال له : عليكَ دَيْن ؟..

قال:

«نعم ، دَيْنٌ لربى لم يحاسبنى عليه، فالويل لى إن سألنى، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم أُلهم حُجَّتى».

قال: إنما أَعْنِى من دَين العباد.

قال:

«إن ربى لم يأمرنى بهذا، إنما أمَرَنى أن أُصَدِّقَ وَعْدَهُ، وأطيعَ أَمْرهُ، فقال ـ عز وجل ـ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [١]».

فقال له: هذه ألف دينار.. خُذها فأنفقها على عيالك، وتقوَّ بها على عبادتك.

فقال:

«سبحان الله! أنا أدلُّكَ على طريق النَّجَاة، وأنت تكافئنى بمثل هذا؟ سلَّمكَ اللهُ، ووفَّقكَ».

ثم صمتَ، فلم يكلِّمنا.. فخرجنا من عنده.. فلما صرنا على الباب ، قال هارون:

إذا دللتنى على رجل، فدلَّنى على مثل هذا.. هذا سيِّد المسلمين.

فدخلت امرأةٌ من نسائه، فقالت:

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦ - ٥٨.

« يا هذا.. قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلتَ هذا المال، فتفرَّجنا به ؟ ».

فقال لها:

«مَثلى ومَثلكُم، كمثلِ قومٍ كان لهم بَعِيرٌ يأكلون من كَسْبه، فلما كبر نَحروه، فأكلوا لحمه».

فلما سمع هارون هذا الكلام قال:

ندخل، فعسى أن يقبل المال.. فلما علم الفضيل، خرج فجلس فى السطح على باب الغرفة.. فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلِّمه فلا يُجيبه.. فَبَيْنَا نحن كذلك، إذ خرجت جارية سوداء فقالت:

«يا هذا: قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة، فانصرفْ، رحمك الله».. فانصرفنا ».

ولا تنتهى قصص الفضيل مع هارون الرشيد عند هذا الحد، فها هى ذى قصة أخرى:

يروى يحيى بن يوسف، أن الفضيل بن عياض لما دخل على هارون أمير المؤمنين قال: « **أيكم هو؟**».. فأشاروا إلى أمير المؤمنين.

فقال:

« أنت هو، يا حَسَنَ الوجه ؟ لقد وُلِّيتَ أمراً عظيماً، إنى ما رأيتُ

أحدًا هو أحسن وجهًا منك ، فإنْ قدرتَ أنْ لا تسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار فافعلْ».

فقال له: عِظْنِي.

فقال:

«بماذا أعظُك ؟.. هذا كتاب الله تعالى بين الدَّفَّتين، انظرْ ماذا عَمِلَ بمن أطاعه، وماذا عَمِلَ بمن عَصَاه».

وقال:

«إني رأيتُ الناسَ يغوصون على النارِ غَوْصاً شديداً، ويطلبونها طلباً حثيثاً.. أمَا ـ والله ـ لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لَنالُوها».

فقال الرشيد: عُدْ إليَّ.

فقال:

«لو لم تبعثْ إليَّ لم آتِكَ، وإن انتفعتَ بما سمعتَ مِنِّي، عدتُ إليك».

والعجيب في صلة الفضيل بهارون الرشيد هو عاطفة الفضيل بالنسبة للرشيد، لقد كانت عاطفة معقدة شديدة التعقيد.. إنها من ألغاز النفس الإنسانية، التي تتكشَّف عن ألغاز، كلما سَبَرَ الإنسان بعض أغوارها.. ولقد أدهشتْ هذه العاطفة الفضيل نفسه، وتعجَّب منها.

وهذا الجانب يرويه محمد بن أبى عثمان، فيقول:

سمعت الفضيل بن عياض يقول:

«ما علَى ظَهْـرِ الأرض أبْغضُ إلىَّ من هارون ، ولا أحد أحبّ إلىَّ بقاءً منه . لو قِيلَ : انتقصْ مِنْ عُـمرك ، ويُزاد فى عمره لفعلتُ . ولو خُيِّـرتُ بين مـوته أو موتِ هذا ـ يريد ابنه أبا عـبيـدة ـ وإنى لأحبـه ـ يعنى أبا عبيدة ـ قال : وأحبُّـه لأنه جاءنى على الكِبَر ـ لاخترتُ موتَ هذا . فسبحان الله الذى جمع بين هاتين الخصلتين فى قلبى ».

قال محمد: يريد لما يحدث بعد هارون من البلاء ».

والفضيل ـ إنـما يحرص على حياة هارون، رغـم بـغضه له؛ لأنه كـان يرى فيـه ـ رغم ما يأخـذه عليه ـ حـزماً فى الإدارة، وحـسن تصرف فى شئـون الناس، واحترامًا للعلماء، وتـقبُّلاً للوعظ والنصح منهم. . وفى ذلك مصلحة الرعية.

ومصلحة الرعيـة ـ عند الفضيل ـ أهم من مصلحته الشـخصية ، وفى سبـيل هذه المصلحة، واستـمرار بقائها، لا يضن الفـضيل بأن ينتقص من عمره، أو أن يموت ابنه ـ الذى يحبه ـ فداء لهارون.

***

ولـم ينس الفضيل أن يروى عدة أحاديث شريفة فى شأن أصحاب الحكم موجِّهـة ومرشدة، منها ما رواه ـ بسنده ـ عن بكير الحريرى ونفر من الأنصار ، قالوا:

أقبل رسول الله ﷺ ، فأقبل كل رجل منَّا يُوسع إلى جنبه رجاءَ أن يجلس إليه، حتى قام على الباب ، وأخذ بعضادتيه، فقال:

« الأئمَّةُ مِنْ قُرَيش ، ولي عليكُم حَقٌّ عظيمٌ ، ولهمْ مثلُ ذلكَ ما فَعلوا ثلاثًا :

- إذا استُرحموا رَحِموا.

- وإذا حكَموا عَدَلوا.

- وإذا عَاهَدوا وَفوا.

فمَنْ لَمْ يفعلْ ذلكَ منهم ؛فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين» .

وهذا الحديث الشريف واضح فى واجب الرؤساء على وجه العموم.

وحديث آخر يبين واجب الحكام أيضاً:

روى الفضيل ـ بسنده ـ أن معاوية ضرب على الناس بعثاً فخرجوا، فرجع أبو الدحداح، فقال له معاوية:

ألم تكن خرجت مع الناس ؟

قال: بلى، ولكن سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً فأحببتُ أن أضَعَهُ عندكَ مخافةَ أنْ لا تلقاني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يا أيُّهَا النَّاسُ مَنْ ولي منكُم عَملاً فحجبَ بابه عن ذى حاجةٍ

للمسلمين ، حَجَبَهُ الله أن يَلِجَ بابَ الجنةِ ، ومَنْ كانتِ الدنيا هِمَّتَهُ حَرَّمَ اللهُ عليه جُواري ».

وهكذا كان الفضيل ـ رحمه الله ـ يحاول دائماً أن يوجِّه الحكام إلى الطريق المستقيم سواء أكان ذلك بسلوكه، أم بقوله، ونصائحه، ورواياته عن رسول الله ﷺ .

وموقف الفضيل من الحكام وذوى السلطان ، موقفه الذى يعتز فيه بالله ورسوله، موقفه الذى يتمثل فيه الإيمان الصادق القوى، يتمثل فيما ذكره صاحب كتاب « تهذيب الأسماء» من أنه قيل للفضيل:

ـ لم لا تحدِّث جعفر بن يحيى ؟

قال:

« إنى أُجِلُّ حديثَ رسول الله ﷺ أن أحدِّث به جعفر بن يحيى».

ولم ينس الفضيل أن يوجِّه النصح باستمرار إلى العلماء حتى لا تذل نفوسهم لذى السلطان ، ومن أمثلة ذلك ما قاله لسفيان بن عيينة . .

لقد جلس سفيان بن عيينة ـ وهو قمة من قمم العلم الإسلامى ـ إلى الفضيل فقال له الفضيل:

« كُنتمْ معاشرَ العلماءِ سُرجًا للبلادِ يُستضاءُ بكم فصرتُم ظُلمةً،

وكُنتم نجوماً يُهتدَى بكم فصرتُـم حيرةً . أمَا يَستحى أحدُكم من الله إذا أتَى إلى هؤلاءِ الأمـــراءِ وأخــذَ مِنْ مـــالهم وهو لا يعلَــمُ من أين أخذُوه ؟ .. ثـم يسندُ بعدَ ذلكَ ظهـرَه إلى مِحْـرابٍ ويقول : حَـدَّثنى فلانٌ عن فلان » .

فطأطأ سفيان رأسه وقال:

«نستغفرُ الله، ونتوبُ إليه » . .

***

الفصل الثالث

الفُضَيل والقُرآن

القرآن ربيع قلوب الصالحين، إن نجواهم به، وإن نعيمهم فيه، وإنه وِرْدهم مصبحين، وهو وِرْدهم ممسين، وإن رسول الله ﷺ يقول ـ فيما رواه عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما:

« مَنْ قرأَ القرآنَ فقد استدرجَ النبوّةَ بين جنبيهِ، غيرَ أنَّهُ لا يُوحَى إليه، لا ينبغي لصاحبِ القرآنِ أنْ يجدَ مَعَ مَنْ وجدَ، ولا يجهلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ، وفي جوفِه كلامُ الله »[1].

وللفضيل مع القرآن صحبة، وله منه هيبة، وإليه محبة، إنه يروى بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ في شأنه، منها:

روى الفضيل ـ بسنده ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« ما خَيَّبَ الله عبداً قامَ في جَوْفِ الليلِ فافتتحَ سُورةَ البقرةِ وآلِ عِمرانَ، ونِعْمَ كَنْزُ المؤمنِ البقرةُ وآلُ عمران ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، كان لا ينام حتى يقرأ:

« الم تنزيلُ الكتابِ، وتباركَ الذي بيدهِ المُلْكُ »[2].

وكان الفضيل يصف الذين يقرءون مخلصين لله وجوههم، فيقول:

---

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أي: سورة السجدة، وسورة الملك.

« قُرَّاءُ الرَّحمنِ أصْحَابُ خُشُوعٍ وذُبولٍ، وقُرَّاءُ الدُّنيا أصْحَابُ عُجْبٍ وتَكَبُّرٍ وازْدِراءٍ للعَامَّة ».

ويقول:

« قُرَّاءُ الرَّحمن أَهْلُ ذُبولٍ وخُشُوعٍ، وقُرَّاءُ الأُمَراءِ أَهْلُ كِبْرٍ وعُجْبٍ وازْدِراءٍ للنَّاس ».

أما قراءة الفضيل فى نفسه، فقد روى إسحاق بن إبراهيم عنها أنها كانت حزينة، بطيئة، مترسِّلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها.

أما شعوره نحو القرآن وعاطفته بالنسبة له، فإنها تظهر من القصة التالية التى رواها صاحب «صفة الصفوة» فقال:

حدَّث سعد بن زنبور قال: كنا على باب الفضيل فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا.

فقيل لنا: إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن . . قال: وكان معنا رجل مؤذِّن وكان صيِّتاً . . فقلنا له: اقرأ، فقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[1]. ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينيه، وأنشأ يقول:

(١) سورة التكاثر: ١.

بَلَغْتُ الثَّمَانِينَ أَوْ جُزْتُهَا ... فَمَاذَا أُؤَمِّلُ أَوْ أَنْتَظِرْ

أَتَى لِي ثَمَانُونَ مِنْ مَوْلِدِي ... وَبَعْدَ الثَّمَانِينَ مَا يُنْتَظَرْ

عَلَتْنِي السُّنُونُ فَأَبْلَيْنَنِي ... .

قال: ثم خنقته العَبْرة.. وكان معنا عليُّ بن خشرم فأتمَّه لنا فقال:

عَلَتْنِي السُّنُونُ فَأَبْلَيْنَنِي ... فَرَقَّتْ عِظَامِي وَكَلَّ الْبَصَرْ

ويتحدث إبراهيم بن الأشعث قائلاً:

ما رأيت أحداً كان الله فى صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذُكر عنده، أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من بحضرته.

وكان دائم الحزن شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وأخذه وإعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره - يعنى الفضيل.

أما نصائحه لأهل القرآن فكثيرة، منها قوله:

« حَامِلُ القُرآنِ حامِلُ رايةِ الإسْلاَمِ، لا يَنبغِي له أنْ يَلْغُوَ مَعَ مَنْ يَلْغُو، ولا أنْ يَلْهو مَعَ مَنْ يَلْهو، ولاَ أنْ يَسْهُوَ مع مَنْ يَسْهُو، ويَنبغِي لحامِلِ القُرآنِ أنْ لا يكونَ لَهُ إلى الخَلْقِ حَاجَةٌ، لا إلى الخُلَفَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ، ويَنبغِي أنْ تكونَ حوائجُ الخَلْقِ إليهِ ».

وكان ﷺ يقول:

« مَنْ قَرأَ القُرآنَ سُئِلَ يومَ القيامة كَمَا تُسألُ الأنبياءُ - عليهِم الصلاةُ والسَّلامُ - عَنْ تَبليغِ الرِّسالةِ فإنَّه وارِثُهُمْ ».

وكان يقول:

« لا يَنبغي لحَامِلِ القُرآنِ أنْ يكونَ له حَاجةٌ عندَ أحَدٍ مِنَ الأمراءِ والأغنياءِ، إنما يَنْبَغِي أنْ تكونَ حَوَائِجُ الخَلْقِ إليهِ هُوَ ».

أما من أُعطى فهم القرآن فإنه - فيما أعلن الفضيل - قد أُعطى علم الأوَّلين والآخرين.

وقد رويت له بعض تفسيرات لعدد قليل من الآيات ، وإننا لنأسف لأنه لم يُرو له الكثير من ذلك، ومن تفسيراته:

قال في قوله تعالى:

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1]: « يعني: أخْلَصه وأصْوَبه.. إنَّ العملَ يجبُ أنْ يكونَ خالصاً للهِ، وصَواباً على متابعةِ النبيِّ ﷺ[2] ».

وقال في ذلك أيضاً :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[3]:

(١، ٣) سورة هود : ٧، وسورة الملك : ٢.

(٢) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

«أخلَصه وأصوَبه، فإنَّه إذا كانَ خَالصاً ولم يكن صَواباً لم يُقبَل، وإذا كان صَواباً ولم يكن خَالصاً لم يُقبَل حتَّى يكونَ خالصاً، والخالصُ إذا كان لله، والصوابُ إذا كانَ على السُّنَّة».

ويحدِّث داود بن مهران قال: «سمعت فضيلاً يقول في قوله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾[1].

قال: «أوْفُوا بما أَمَرْتُكم، أُوفِ لكمْ بما وَعَدْتُكم».

وعن سهيل بن عاصم قال: «سمعت إبراهيم بن الأشعث يقول: سمعت فضيلاً يقول في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[2]:

قال: «لا تَغْفَلوا عَنْ أنفُسِكم فإنَّ مَنْ غَفَلَ عَنْ نَفْسه فقَدْ قَتَلَها».

وقال إبراهيم بن الأشعث: «سمعت فضيلاً يقول ذات ليلة، وهو يقرأ سورة محمد، ويبكي ويردد هذه الآية:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[3].

وجعل يقول:

---

(١) سورة البقرة : ٤٠.

(٢) سورة النساء : ٢٩.

(٣) سورة محمد : ٣١.

«ونبلو أخباركم» .. ويردد: «وتبلو أخبارنا ؟.. إن بَلَوْتَ أخبارنا فَضَحْتَنا وهتكتَ أستارنا، وإنك إن بَلَوْتَ أخبارنا أهلكتنا وعذّبتنا» . . ويبكي . . » .

وعن الحسن بن على العابد قال: قال الفضيل بن عياض لرجل: « كم أتتْ عليك ؟ » .

قال: ستون سنة .

قال: «فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك توشك أن تبلغ» .

فقال الرجل : يا أبا على، إنا لله وإنا إليه راجعون .

قال له الفضيل : «تعلم ما تقول ؟» .

قال الرجل : قلت إنا لله وإنا إليه راجعون .

قال الفضيل : «تعلم ما تفسيره ؟» .

قال الرجل: فَسِّره لنا يا أبا على .

قال:

«قولك إنا لله، تقول: أنا لله عبدٌ، وأنا إلى الله راجعٌ. فمن علم أنه عبد الله وأنه إليه راجع، فليعلم بأنه موقوفٌ ، ومن علم بأنه موقوفٌ فليعلم بأنه مسئولٌ ، ومن علم أنه مسئولٌ فَلْيُعِدَّ للسؤال جواباً» .

فقال الرجل : فما الحيلة ؟ . .

قال: «تُحْسِنُ فيما بقى يغفرْ لك ما مضى وما بقى ، فإنك إنْ أسأتَ فيما بقى أُخِذتَ بما مضى وما بقى» .

وعن محمد بن إبراهيم قال: حدثنا أبـو يعلى، حدثنا عبد الصمد قال: سمعت الفضيل يقول:

«إنمـا هُمَا عَالِـمان، عَالِمُ دُنـيا، وعَالِمُ آخِـرَة، فعـالمُ الدُّنيا عِلْـمُهُ مَنْشُورٌ، وعالِم الآخِرَةِ عِلْمُهُ مَسْتُورٌ، فاتَّبعوا عَالِمَ الآخِرَةِ، واحْذَروا عَالِمَ الدُّنيا، لا يَصُدُّكم بسُكْرِه».. ثم تلا هذه الآية:

﴿إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[1].. الآية. تفسير «الأحبار»: العلماء. و«الرهبان»: العُبَّاد.

ثم قال الفضيل:

«إنَّ كثيراً مِنْ علمـائكم زِيُّه أشْبَـهُ بزِيِّ كِسْـرَى وقَيْصَـرَ منه بِزِيِّ مـحمـد ﷺ، إنَّ محـمداً لـم يضعْ لَبِنَةً على لَبِنَةٍ، ولا قَـصَبَـةً على قَصَبَةٍ، لكنْ رُفِعَ لَهُ علمٌ فسموا إليه».

قال: وسمعت الفضيل يقول:

« العُلَمَاءُ كثيرٌ والحُكَمَاءُ قَلِيلٌ، وإنَّما يُرَادُ مِنَ العِلْمِ الحِكْمَةُ، فَمَنْ أُوتِيَ الحِكْمَةَ فقدْ أُوتِيَ خَيراً كَثيراً».

وقال:

« لَوْ كَانَ مـعَ عُلَمَائِنَا صَـبْرٌ ما غَـدَوا لأبوابِ هؤلاءِ » .. يعني: الملوك.

---

(١) سورة التوبة : ٣٤ .

وسمعت رجلاً يقول للفضيل:

ـ العلماء ورثة الأنبياء.

فقال الفضيل: «العُلَمَاءُ الحُكَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ».

وقال رجل للفضيل:

ـ العلماء كثير.

فقال الفضيل: «الحُكَمَاءُ قَلِيلٌ».

***

الفصل الرابع

الفُضَيل والدُّعاء

إن الدعاء مظهر من مظاهر الخضوع والتواضع والعبودية، ومن أجل ذلك يكثر الصالحون من الدعاء لأنفسهم ولأهليهم ولأصدقائهم وللمسلمين على وجه العموم، وهم فى ذلك يستجيبون لله سبحانه فى حثه المؤمنين على الدعاء:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1].

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2].

ويستجيب الفضيل إلى القرآن ويتابع أسلافه فى ذلك، فيروى أحاديث عدة فى الدعاء منها: ما رواه الفضيل ـ بسنده ـ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ حَيِيٌّ، يَكْرَهُ إِذَا بَسَطَ الرَّجُلُ يَدَهُ أَنْ يَرُدَّهَا صِفْرًا لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ:

---

(١) سورة غافر : ٦٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1].

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال:

« اللهُمَّ إنِّي أعــوذُ بكَ أنْ أزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظلَمَ، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

أخذ كعب بيدي، فقال: خذ مني اثنتين:

« إذا دَخَلْتَ المَسْجِـدَ فَصَلِّ علَى النبيِّ ﷺ وقل: اللهُمَّ افتحْ لي أبوابَ الرَّحـمةِ. وإذا خَـرَجْـتَ فَـصَلِّ على الـنبيِّ ﷺ وقل: اللهُمَّ احْفَظْنِي مِنَ الشَّيطانِ ».

وكان الفضيل يتابع رسول الله ﷺ في دعائه، ويسير على نسقه ﷺ في الدعاء متخذاً الرسول أسوة حسنة.

وكان من دعائه:

« اللهُمَّ أعِزَّنَا بعِزِّ الطَّاعةِ، ولا تُذِلَّنا بذُلِّ المَعْصيةِ ».

وكان إذا اشتكى يردد:

« ربِّ إنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرَّاحِمين ».

---

(1) سورة غافر: ٦٠.

وكان كثيراً ما يردد:

« اللَّهُمَّ ارْحَمْنى فَإِنَّكَ بِى عَالِمٌ، ولا تُعَذِّبْنى فَإِنَّكَ عَلَىَّ قَادِرٌ ».

وكان يقول:

« اللهُمَّ زَهِّدْنَا فِى الدُّنْيَا فإنَّهُ صَلاَحُ قُلُوبِنَا وأعْمَالِنَا وجَمِيعُ طلبَاتِنا ونجاحُ حَاجَاتِنا ».

والدنيا التى يضرع كل الصوفية إلى الله أن يزهِّدهم فيها إنما هى الشهوات والأهواء والنزغات، وهى ما عبر الله تعالى عنه واصفاً إياها وصفاً دقيقاً:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾[2].

---

(١) سورة الحديد: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٤.

ويقول سبحانه:

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

ولعل الأمر لا يلتبس على الناس فى ذلك ، فكل ما كان فساداً أو حثاً على الفساد فهو الدنيا، أما الثراء الطيب، والكسب الحلال والضرب فى الأرض،والسعى فيها بالصورة الكريمة التى لا مخالفة فيها للدين، والتى أخلص الإنسان فيها وجهه لله، فإنها مطلوبة، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون فى الأرض ويكتسبون المال من حِلِّه، وينفقون منه فى سبيل الله، ويتصدقون ويبنون المساجد ويساعدون الفقراء والمساكين، وكل ذلك جهاد فى سبيل الله.

فليس معنى الزهد فى الدنيا أن يكون الإنسان عالة على الآخرين أو أن يكون فقيراً. كَلاَّ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

ولقد كان سيدنا عبد الرحمن بن عوف، وسيدنا عثمان من كبار الأثرياء، وهُمَا مَنْ هُمَا: زهداً، وتقوى، وعبادة، وإخلاصاً لله سبحانه وتعالى.

والعمل فى الإسلام هجرة إلى الله ما دام المقصود منه وجه الله سبحانه وتعالى:

«إنما الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنما لكلِّ امْرِئٍ ما نَوَى ، فَمَنْ كانَتْ

---

(١) سورة الأنعام : ٣٢ .

هِجْرَتُه إلى الله ورَسُولِه فَهِجْرَتُه إلى الله ورَسُولِه، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُه لدُنيا يُصيبها أو امرأةٍ يَتزوَّجُها، فهجرتُه إلى ما هَاجَرَ إليه»(١).

وعلى ضوء هذا نفهم موقف الصوفية من الزهد فى الدنيا.

ونعود بعد ذلك إلى الفضيل والدعاء، وإن من طريف ما يروى فى ذلك عنه قوله:

« لَوْ أنَّ لِى دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً مَا صَيَّرْتُهَا إلاَّ فى الإِمَامِ(الحَاكِمِ)».

فقيل له: ولِمَ ذلك يا أبا على؟

فقال: «متى ما صَيَّرْتُها فى نَفْسى لم تَتجاوزْنى، ولكنِّى إذا صَيَّرْتُها فى الإمام فإنه يكون فى ذلك صَلاحُ العباد والبلاد».

فقيل له: وكيف ذلك يا أبا على، فَسِّرْ لنا هذا؟

فقال:

«أمَّا صَلاحُ البلادِ فإنَّه إذا أمِنَ الناسُ ظُلْمَ الإمَامِ، عَمَّروا الخَرابَاتِ، ونَزَلُوا فى الأرضِ لإصْلاحِها، وأمَّا صَلاحُ العِبادِ فإن الحاكمَ ينظرُ إلى ذَوِى الجَهْلِ فيرَى أنه قد شَغَلَهُمْ طَلَبُ المعيشَةِ عن طَلَبِ ما يَنفعُهم مِنْ تَعلُّم القُرآنِ وغيرِه: فيَجْمَعُهُمْ فى دُورٍ خمسينَ خمسينَ، أو أقلَّ أو أكثرَ، ويُعلِّمُهم أمورَ دينِهم ويعرِّفُهم أنَّ ذلكَ هو

---

(١) رواه الإمامان البخارى ومسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

ما يُصْلِحُـهُمْ. وينظرُ إلى أصْحَـابِ الثَّراءِ ويأخذُ مِـنْ زَكاتِهمْ ويَردُّها على فُقَرائِهمْ، فيكونُ في ذلكَ صَلاَحُ العِبادِ » اهـ.

وكان بمجلس الفضيل حينئذ ابن المبارك العالم الورع، فسمع ذلك فما ملك أن قام فقبَّل جبهة الفضيل، وقال له في ـ إعجاب ـ:

« يا مُعَلِّمَ الخير، مَنْ يُحْسِنُ هَذا غَيرُكَ ؟ ».

***

الفصل الخامس

المُحَدِّث

لقد توافرت للفضيل مؤهلات المحدِّث الثقة:

١ـ لقد كان بفطرته قويَّ الذاكرة، ولن يفلح محدِّثٌ ـ قط ـ إذا لم يكن قويَّ الذاكرة، إن ذاكرة المحدِّث الأصيل آلة تعي وتسجل ولا تنسى، ولا تخطئ.

٢ ـ وكان الفضيل بفطرته ذكيًا، وتوافر فيه الذكاء والذاكرة.

٣ ـ ولا يغنى ذلك شيئاً بالنسبة للمحدث إذا لم يكن ورعاً يتحرَّج كل التحرج من الكذب على رسول الله ﷺ.

وقد كان الفضيل ورعًا بشهادة كل من اتصلوا به، وبشهادة هارون الرشيد الذى يقول:

« ما رأيتُ أورَعَ من الفُضَيل ».

٤ ـ ولابد من العكوف على الحديث دراسة وبحثاً وتحرِّياً، وقد توافر كل ذلك للفضيل.

ـ ولا يتأتى أن يكون القبول العام للمحدِّث ما لم يتحلَّ بحبٍّ رسول الله ﷺ، وهذه الصفة الأخيرة هى فى الواقع طابع كل المحدِّثين الذين كتب الله لهم القبول.

ولقد روى الفضيل فى ذلك من الأحاديث ما يدل على طابعه ونزعته: لقد روى الفضيل ـ بسنده ـ عن على بن أبى طالب قال، قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ، قال:

« مَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِى النَّارِ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن عائشة ﵂، قالت:

« جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله.. إنك لأَحَبُّ إلىَّ من نفسى، وإنك لاحبُّ إلىَّ من أهلى، وأحبُّ إلىَّ من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك. وإذا ذكرت موتى وموتك عرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيين، وأنى إذا دخلتُ الجنة خَشِيتُ أن لا أراك.. فلم يرد إليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه الآية:

﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾[1] ».

ومن أجل هذه الصفات ـ التى أهَّل الله الفضيل بها ـ كان ثقة عند المحدِّثين.

وروى له البخارى ومسلم وبقية المشتغلين بالحديث ـ ﵃ أجمعين، يقول الإمام النووى فى « تهذيب الأسماء »:

« وأجمعوا على توثيقه، والاحتجاج به، وصلاحه، وزهده، وورعه، ونحوها من طرائق الآخرة ».

---

(١) سورة النساء : ٦٩.

ويقول ابن سعد:

« كان ثقة، ثبتاً، فاضلاً، ورعاً، عابداً، كثير الحديث ».

ويقول الإمام النووى:

«وكان صحيح الحديث، صدوق اللسان، شديد الهيبة للحديث».

ويقول إسحاق بن إبراهيم الطبرى:

« كان صحيح الحديث، صدوق اللسان، شديد الهيبة للحديث إذا حدّث ».

وقال أبو حاتم: « **صدوق** ».

وقال النسائى: « **ثقة، مأمون** ».

وقال الدارقطنى: « **ثقة** ».

أما الذين أخذ الفضيل عنهم الحديث فكثيرون، يقول ابن سعد:

«وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث من منصور وغيره».

ويذكر صاحب « صفة الصفوة » الفضيل فيقول:

« أسند عن جماعة من كبار التابعين منهم: الأعمش، ومنصور بن المعتمر، وعطاء بن السائب، وحصين بن عبد الرحمن، ومسلم الأعور، وأبان بن أبى عياش ».

ومن المعروف أن هؤلاء أدركوا أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ أما سليمان الأعمش، ومنصور بن المعتمر، فقد أدركا أيضاً عبد الله بن أبى أوفى ﷺ.

أما من أخذ عن الفضيل فخَلْقٌ كثير. منهم سفيان الثورى،

وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدى، وحسين بن على الجعفى، ومؤمل بن إسماعيل، وعبد الله ابن وهب المصرى، وأسد بن موسى، وثابت بن محمد العابد، ومسدد، ويحيى بن يحيى النيسابورى، وقتيبة بن سعيد، وأشكالهم ونظراؤهم.

وكان الفضيل مَعنيّاً بأهل الحديث، ناصحاً لهم، موجِّهاً لسلوكهم.

لقد رأى مرة قوماً من أصحاب الحديث، يمزحون ويضحكون بصورة تتنافى مع وضع الأئمة، فناداهم:

« مَهْلاً، يا وَرَثَةَ الأنبياء، مَهْلاً - ثلاثاً - إنكم أئمةٌ يُقتدَى بكم ».

رحم الله الفضيل . لقد كان كريماً على نفسه، مجاهداً طيلة حياته فى نشر التراث النبوى الشريف.

وفيما يلى نموذج يسير مما رواه عن رسول الله ﷺ :

روى الفضيل عن منصور، عن رِبعىٍّ، عن أبى مسعود الأنصارى، قال: قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ مما أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ: إذا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ »(1).

وقال الفضيل: حدثنا منصور بن المعتمر، عن ابن شهاب الزهرى، عن عروة، عن عائشة، قالت:

---

(1) ثابت مشهور .

« ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ منتصراً مِنْ مَظْلَمَةٍ ظُلِمَها ـ قَطُّ ـ ما لم تُنتهكْ محارمُ الله، فإذا انتُهكَ مِنْ مَحَارِمِ الله شيءٌ، كان أشدَّهُمْ في ذلكَ غضبًا .. وما خُيِّرَ بينَ أمْرَيْنِ إلا اختارَ أيْسَرَهُمَا ما لَمْ يكنْ مأثمًا »[1].

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن أبان، عن أنس، عن أبي طلحة، قال:

« دفعنا إلى النبي ﷺ، وهو أطيبُ شيء نَفْساً فقلنا له، فقال: وما يمنعني .. وإنما خرج جبريل عليه السلام آنفاً، فأخبرني أنه مَنْ صَلَّى عليَّ صلاةً كتبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ ومَحَا عنه عشرَ سيِّئاتٍ، وردَّ عليه مثلَ ما قالَ »[2].

وروى الفضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت:

« ما شَبِعَ آلُ محمدٍ ﷺ، مُنْذُ قَدِمُوا المدينةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثلاثةَ أيَّامٍ، حتَّى لَحِقَ الله »[3].

وروى الفضيل، عن سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن ابن أبي أوفى، قال:

---

(١) ثابت صحيح .

(٢) ثابت مشهور .

(٣) مشهور .

« دَخَلَ النبيُّ ﷺ فى بَعْضِ عُمْرِهِ مَكَّةَ، وهُمْ يَرْمُونَهُ، ونَحْنُ نَسْتُرُهُ» (١).

وروى الفضيل، عن مطرح بن يزيد، عن عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم ، عن أبى أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ :

« عَرَضَ عَلَىَّ ربِّى بَطحاءَ مكَّةَ ذَهباً.. فقلتُ: لا، يا رب.. ولكنْ أجُوعُ يوماً، وأشْبَعُ يوماً، فإذا شَبِعْتُ حَمَدْتُكَ وشكَرْتُكَ، وإذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إليكَ ودَعَوْتُكَ ».

وروى الفضيل ، عن أبى حمزة، عن إبراهيم ، عن الأسود، عن عائشة ، قالت:

« ما شَبِعَ رسولُ الله ﷺ مِنَ البُرِّ السَّمراءِ ثلاثَ ليالٍ، حتَّى ماتَ ».

وروى الفضيل، عن هشام بن حسان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ، قالت:

« كَانَ يَأتِى علَى آلِ مُحَمَّدٍ الشَّهْرُ، ما يَخْتَبِزُونَ ».

وروى الفضيل، عن حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال:

«خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، وفى يده قطعة من ذهب.. فقال لعبد الله بن عمر:

---

(١) صحيح ثابت متفق عليه .

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ قائلاً لِربِّه، وهَذِه عِنْدَهُ ؟.. فَقَسَّمها قبلَ أن يقومَ، ثُمَّ قال:

« ما يَسُرُّنِى أنَّ لأصحابِ محمَّد مثلَ هَذا الجبلِ ـ وأشارَ إلى أُحُد ـ ذَهَباً، فيُنفقُها فى سبيلِ الله، ويتركُ منها ديناراً ».

فقال ابن عباس:

« قُبِضَ رسولُ الله ﷺ يومَ قُبِضَ، ولم يَدَعْ ديناراً ولا درهماً، ولا عَبْداً ولا أمَةً.. ولقد تركَ درْعَهُ مرهونةً عندَ رجلٍ من اليهودِ بثلاثينَ صَاعاً منَ الشَّعيرِ، كان يأكلُ منه ويُطعِمُ عيالَهُ ».

وروى الفضيل، عن جابر، عن أبى جعفر، قال: كان رسول الله ﷺ إذا شرب الماء قال:

« الحمدُ لله الَّذِى سَقَانَا عَذْباً فُرَاتاً بِرَحْمَتِهِ، ولَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحاً أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا ».

وروى الفضيل، عن مسلم البَزَّار، عن أنس بن مالك، قال:

«كانَ رسولُ الله ﷺ يُجيبُ العَبْدَ، ويركبُ الحمَارَ، ويعودُ المريضَ».

وروى الفضيل، عن هشام، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال:

« قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، ودرْعُهُ رَهْنٌ عندَ رجلٍ يهودىٍّ بثلاثينَ صَاعاً مِنَ الشَّعيرِ، أخذَه طعاماً لأهلِه»[1] .

---

(١) مشهور من حديث عكرمة .

وروى الفضيل، عن سفيان الثورى، عن عبد الله بن السائب، عن زادان، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ :

« لله مَلائكةٌ سيَّاحُونَ في الأرضِ، يُبلغونى عَنْ أُمَّتى السَّلام ».

عن المؤمن:

وروى الفضيل، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد ، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ :

« المؤمنُ إنْ مَاشَيْتَهُ نَفَعَكَ ، وإنْ شَاورْتَهُ نَفَعَكَ، وإنْ شَاركْتَهُ نَفَعَكَ، وكُلُّ شيءٍ مِنْ أمْرِه مَنْفَعَةٌ » .

وروى الفضيل بن عياض، عن العلاء بن المسيب، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، قال:

« لَيْسَ للمُؤمِنِ رَاحَةٌ دُونَ لقاءِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، فَمَنْ كَانَتْ رَاحتُهُ فِي لقاءِ اللهِ، فكأن قدْ ».

فى الورع:

وروى الفضيل وابن عيينة، عن مجالد وزكريا، عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول - وأوما[1] النعمان بإصبعيه إلى أذنيه -:

« ألاَ إنَّ الحلاَلَ بيِّنٌ، والحرَامَ بيِّنٌ، وبَينهُمَا أمورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَمَنِ

(١) أشار .

اتَّقَى الشُّبُهَات استَبْرأَ لدينه وعرضه، وَمَنْ وَقَعَ فى الشُّبُهَات وَقَعَ فى الحَرام، كالرَّاعِى يرتَعُ حَوْلَ الحمَى، يُوشكُ أَنْ يرتَع فى الحمَى.. ألاَ وإنَّ لكلِّ مَلك حمًى، ألا وإنَّ حمَى الله محَارمُهُ.. ألاَ وإنَّ فى الجَسد مُضْغَةً.. إذَا صَلَحَتْ وطابَتْ صَلَحَ لهَا الجسَدُ وطاب، وإنْ سَقِمَتْ وفَسَدَتْ، سَقِمَ الجسَدُ كُلُّه وفَسَدَ، وهِيَ القَلْبُ»[1].

وروى الفضيل، عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال:

« أيتُهَا الأُمَّةُ.. إنِّى لا أخَافُ عليكُم فيما لا تعلمونَ .. ولكنِ انظُروا كيفَ تَعْمَلُونَ فيما تَعلمون ».

فى رؤية الله تعالى:

وروى الفضيل، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن عيسى بن أبى حازم، عن جرير، قال:

« كُنَّا عندَ رسول الله ﷺ .. إذْ نَظَرَ إلى القمرِ ليلةَ البَدْرِ، فقال: «أمَا إنَّكُم سترونَ ربَّكم يومَ القيامة، كما ترونَ هذا القمرَ ـ وأشارَ إلى القمرِ بالسبَّابة ـ لا تُضَامُونَ فى رُؤيته، فإن استَطعتُمْ أن لا تُغلَبوا على صلاة قَبْلَ طلوعِ الشمسِ وقَبْلَ غُروبها فافعَلُوا» .. ثم قرأ:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.. الآية»..[2].

---

(١) صحيح ثابت .

(٢) صحيح متفق عليه . والآية من سورة طه : ١٣٠ .

فى الصلاة:

وروى الفضيل، عن سليمان بن مهران، عن أبى سفيان، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ :

« لَيْسَ بينَ الكُفْرِ والإيمانِ إلاَّ تَرْكُ الصَّلاة »[1].

وروى الفضيل، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن أبى معمر، عن ابن مسعود ، قال: قال رسول الله ﷺ :

«لا تُجْزِئُ صَلاةٌ لا يُقِيمُ الرَّجُلُ فِيها صُلْبَه فى الرُّكُوعِ والسُّجود»[2].

وروى الفضيل، عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ :

« الملائكةُ تصلِّى علَى أحَدِكم مَا دَامَ فى مُصَلاَّه ما لَمْ يُحدِثْ : اللهُمَّ اغفِرْ لَهُ.. اللهُمَّ ارْحَمْهُ.. وأحَدُكُمْ فى الصَّلاةِ ما كانتِ الصَّلاةُ تَحْبِسُهُ »[3].

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن أشعث بن سوار، عن الحسن ، عن عثمان بن أبى العاص، قال:

« آخِرُ ما عُهِدَ إلى رسول الله ﷺ قال:

---

(١) ثابت مشهور من حديث جابر .

(٢) ثابت مشهور من حديث جابر .

(٣) مشهور من حديث المسيب بن رافع .

« صَلِّ بأصحابكَ صلاةَ أضْعَفِهِمْ ، فإنَّ فيهم الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجةِ ، واتَّخِذْ مؤذِّنًا لا يأخذُ على الأذانِ أجْرًا »[1].

وروى الفضيل ،عن زياد بن سعد ، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ :

« إذَا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فلاَ صَلاةَ إلاَّ المكْتُوبَةُ » .

وروى الفضيل ، عن منصور ،عن شقيق ، عن مسروق، قال: قالت عائشة:

« ما سَمِعْتُ الرسولَ ﷺ يصلِّي صلاةً إلاَّ وهُوَ يتَعَوَّذُ مِنْ عذابِ القَبْرِ »[2].

وروى الفضيل، عن الأعمش، عن المسيب بن رافع،عن تميم الطائي، عن جابر بن سمرة، قال:

« خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال:

«ألا تُصفّونَ كما تُصَفُّ الملائكةُ عِندَ ربِّهم ؟».

قالوا : يا رسول الله . . كيف تصف الملائكة ؟

قال: « يُتمُّونَ الصُّفُوفَ المتقَدِّمَةَ، ويَتراصّونَ في الصَّفِّ »[3].

وروى الفضيل، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :

---

(١) ثابت مشهور من حديث الحسن .

(٢) ثابت مشهور .

(٣) مشهور من حديث المسيب بن رافع .

« الإِمَـامُ ضَـامِنٌ ، والمُـؤَذِّنُ أمِـينٌ ، أرْشَـدَ اللَّهُ الأئِمَّـةَ ، وأعَـانَ المؤَذِّنينَ»[1] .

وحدَّث الفضيل، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ :

« غُسْلُ يومِ الجمعةِ واجِبٌ على كُلِّ مُحْتَلِمٍ »[2].

وحدَّث الفضيل، عن الأعمش، عـن أبى سفيان، عن جابر، عن أبى سعيد الخدرى، قال:

«رأيتُ النبىَّ ﷺ يُصَلِّى فى ثوبٍ واحدٍ مُتوشِّحاً بهِ».

فى الحـج:

وروى الفـضيل، عن منصـور، عن أبى حـازم، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ حَجَّ هَذا البَـيْتَ فَلَـمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْـسُقْ ، رَجَعَ كَـيَومٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[3] .

وروى الفـضـيل، عن عطاء بن الســائب، عن طاوس، عن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال:

« الطَّـوَافُ بالبيتِ صَـلاةٌ، إلاَّ أنَّ اللهَ أحَلَّ فيه الـمَنْطِقَ، فمَنْ نَطَقَ فلا يَنْطِقْ إلا بخَيرٍ ».

---

(١) رواه الجم الغفير عن الأعمش .

(٢) صحيح ثابت من حديث صفوان .

(٣) صحيح متفق عليه .

في الأضحية:

وحدَّث الفضيل، عن منصور، عن الشعبي، عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال:

« **مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلاةِ فليُعِدِ الذَّبحَ** ».

في الجهاد :

وروى الفضيل، عن سليمان بن مهران، عن أبي عمرو الشيباني، عن ابن مسعود قال:

« جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله.. هذه الناقة في سبيل الله.. قال: « **لَكَ بِهَا سَبْعُمائَةُ نَاقَةٍ مَخْطُومةٍ في الجنَّةِ** »[1] .

وروى الفضيل، عن حصين بن عبد الرحمن، عن الشعبي، أن عروة البارقيَّ حدثهم أن النبي ﷺ قال:

« **الخَيْلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخيرُ إلى يَومِ القِيَامةِ.. قيل: وما ذاك ؟.. قال: الأجرُ والمَغْنَمُ** »[2].

وقال الفضيل : حدثنا مالك بن أنس، عن الزهري ، عن أنس: «**أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ يومَ الفَتحِ، وعلَى رأسِهِ مِغْفَرٌ**»[3].

---

(١) مشهور من حديث الأعمش ، ثابت حدث به عن الفضيل جماعة .

(٢) مشهور من حديث الشعبي ، رواه عنه جماعة .

(٣) ثابت صحيح من حديث مالك، رواه عنه الجم الغفير .. والمغفر : بيضة الحديد أو (الخوذة) .

حق الله وحق العباد:

وروى الفضيل، عن سليمان الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس، قال:

« أتانا معاذ بن جبل.. فقلت: حدِّثنا من طرائف حديث رسول الله ﷺ .. فقال:

« كنتُ رَدِيفَهُ فقال: «يا مُعَاذُ.. ما حَقُّ الله على العِبَادِ ؟»».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حَقُّهُ عَلَيهِمْ أنْ يَعبدُوهُ ولا يُشرِكُوا بهِ شيَئًا».

قلت: فما حق العباد إذا فعلوا ذلك ؟

قال: «حَقُّهُمْ عليهِ أنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ» [1].

في الأخلاق:

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن عبد الله بن مسعود، قال:

« إنِّي لأُخْبَرُ بمكَانِكُمْ فَمَا يمنعُنِى أنْ أخرجَ إليكُم إلاَّ مَخَافَةَ أنْ أُملَّكُمْ، وقَدْ كانَ رسولُ الله ﷺ يَتَخَوَّلُنَا [2] بالمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّآمةِ عَلَينا » [3] .

وقال الفضيل: حدثنا محمد بن ثور الصنعاني، عن معمر، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صحيح ثابت من حديث أنس عن معاذ .

(٢) يتخولنا: يتعهدنا .

(٣) صحيح ثابت من حديث منصور والأعمش .

« إنَّ اللهَ تعالى كريمٌ يحبُّ الكرمَ ومَعالِيَ الأخلاقِ، ويُبغِضُ سَفْسَافَها »..

وروى الفضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ نَفَّسَ عن مُسلمٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يومِ القِيَامَةِ، ومَنْ سَتَرَ على مسلمٍ في الدُّنيا سَتَرَهُ الله في الدنيا والآخِرَةِ، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ في الدنيا يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ في عَوْنِ العبدِ ما كان العبدُ في عَوْنِ أخيه »[1].

وحدَّث الفضيل، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن جرير ابن عبد الله البجلي، عن النبي ﷺ، قال:

« مَنْ لا يَرْحَمِ الناسَ لا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ »[2].

وروى الفضيل، عن محمد بن الزبير، عن الأسود بن سريع، قال: سمعت سلمان الفارسي يقول:

« إنَّما تَهْلِكُ هَذِهِ الأُمَّةُ مِنْ قِبَلِ نَقْضِ مَوَاثِيقِها ».

وروى الفضيل بن عياض، عن منصور بن المعتمر، عن شقيق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) مشهور من حديث الأعمش.

(٢) حديث صحيح ثابت.

« سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وقِتَالُهُ كُفْرٌ »[1].

وروى الفضيل، عن الحسن بن عبيد الله، عن رِبْعِيّ بن حراش، قال: قال حذيفة:

«إنَّ آخِرَ ما أدْرَكْنَا مِنَ النُّبوَّةِ: إذَا لَمْ تَسْتَحِ فافْعَلْ ما شِئْتَ»[2].

وروى الفضيل، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال:

« مَنْ أطْعَمَ مُسْلِمًا جَائِعًا أطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الجنَّةِ ».

وحدَّث الفضيل، عن سليمان، عن أبى سفيان، عن جابر، قال:

« كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فهاجتْ ريحٌ مُنْتِنَةٌ، فقال رسول الله ﷺ :

« إنَّ نَاساً مِنَ المنَافِقِينَ اغْتَابُوا نَاساً مِنَ المؤمنينَ - وقالَ مُسَدَّد: من المسلمين - فلذلك هاجَتْ هَذِهِ الرِّيحُ - وقال مسدَّد: فبعثتْ هذه الريح لذلك »[3].

وروى الفضيل، عن منصور، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صحيح ثابت متفق عليه .

(٢) صحيح ثابت من حديث ربعى عن أبى مسعود عقبة بن عمرو .

(٣) مشهور من حديث فضيل عن الأعمش .

«لا هِجْرَةَ فَوقَ ثَلاثَةِ أيامٍ ، مَنْ هَجَرَ فَوقَ ثَلاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النارَ»[1] .

وروى الفضيل ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« انْظُروا إلى مَنْ هو أسْفَلَ منكُمْ ، ولا تَنظُروا إلى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَإنَّه أجْدَرُ أنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله عَليكُمْ » .

وروى الفضيل ، عن الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن أبى ذر ، قال : « كنت مع النبى ﷺ فى المسجد ، فقال :

« انْظُرْ أىَّ رَجُلٍ يُرَى فى عَيْنَيْكَ أرْفَع ؟» .

فنظرت ، فإذا رجل عليه حُلَّة ، وحوله ناسٌ ، فقلت : هذا .

قال : « انْظُرْ أىَّ رَجُلٍ يُرَى أدْنَى فِى عَيْنَيْكَ ؟» .

فنظرت ، فإذا رجل عليه كساء ، فقلت : هذا .

قال : «هَذا خَيْرٌ عِندَ اللهِ - عَزَّ وجَلَّ - يوْمَ القيامَةِ مِنْ قُرَابِ الأرْضِ مِثْل هَذا »[2] .

وروى الفضيل ، عن قطر بن خليفة ، عن حماد ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صحيح من حديث منصور ، حدث به الثورى وغيره .

(٢) ثابت مشهور من حديث الأعمش .

« ليسَ المُكَافِئُ بالمُواصِلِ ، ولكنَّ المُواصِلَ مَنْ إذا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا » .

وحدَّث الفضيل بن عياض ، عن سليمان الكاهلى ، عن مسلم بن صبيح ، عن مسروق بن الأجدع قال : قال أبو بكر الصديق ﷺ : قال رسول الله ﷺ :

« المَصائِبُ والأَمْرَاضُ والأحْزَانُ فى الدُّنيا جَزَاءٌ »[1] .

وروى الفضيل بن عياض ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن أبى موسى الأشعرى ، يرفعه إلى النبى ﷺ :

« إنَّ إبليسَ يبعثُ جنودَه كلَّ صباحٍ ومساء ، فيقول:

مَنْ أضلَّ رجلاً أكرمتُه ، ومَنْ فعلَ كذا فَلَهُ كذا... فيأتى أحدُهم فيقول:

لَمْ أزَلْ بهِ حتَّى طلَّقَ امرأتَه.. قال: يتزوَّجُ أخرى..

فيقول: لَمْ أزَلْ بهِ حتَّى زَنَى ، فيُجيزه ويُكرمه.. ويقول: لِمِثْلِ هَذا فاعمَلوا..

ويأتى آخر فيقول:

---

(١) عزيز من حديث الفضيل .

لَمْ أزَلْ بِفُلان حتَّى قَتَلَ.. فيصيحُ صيحةً يجتمعُ إليه الجنُّ، فيقولون له: يا سيِّدَنا، ما الذى فَرَّحَكَ ؟..

فيقول : أحَدُ بَنى فُلان.. إنَّه لم يَزَلْ برجلٍ مِنْ بَنى آدمَ يفْتنُهُ ويصدُّه، حتَّى قَتَلَ رجلاً فدخلَ النارَ.. فيُجيزه ويُكرمه كرامةً لم يكرِمْ بها أحداً مِنْ جُنودِه، ثم يَدْعُو بالتَّاجِ فيَضعهُ علَى رأسِه ويَستعملهُ عَليهمْ ».

فى البداية والنهاية:

وروى الفضيل ـ بسنده ـ أن رسول الله ﷺ ،وهو الصادق المصدوق، قال:

« إنَّ أحدَكم يُجْمَعُ فى بَطنِ أُمّه أربَعين يومًا، ثُمَّ عَلَقَةً مثلَ ذلكَ، ثم يكونُ مُضغَةً مثلَ ذلكَ، ثم يبعثُ الله ملَكاً، فيُؤمَرُ بأربعة: برزقه، وأجَلِه ، وشَقىٌّ أو سعيدٍ ، ثم يُنفخ فيه الرُّوح . فوَاللهِ إنَّ أحدَكم ـ أو الرجلَ ـ لَيَعْمَلُ بعَملِ أهلِ النارِ، حتَّى ما يكونُ بيْنَهُ وبَينها غيرُ ذراعٍ أو باعٍ ، فيَسْبِقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ فيَدْخُلَها . وإنَّ الرجلَ لَيَعْمَلُ بعَمل أهلِ الجنةِ حتَّى ما يكونُ بينه وبينها غيرُ ذراعٍ أو ذِراعين فَيَسْبِقُ عليهِ الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيَدْخُلها» .

وحدَّث الفضيل ، عن الأعمش، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ :

« استَعيذُوا بالله منْ عذَابِ القَبْرِ، ومنْ فتنَةِ المَحْيَا والممَاتِ، ومِنْ فتنَةِ المسيحِ الدَّجَّالِ ».

وحدَّث الفضيل بن عياض، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، قال: سمعت النبيَّ ﷺ قبل موته بثلاث يقول:

« لا يَموتنَّ أحَدٌ منكُم إلا وهُوَ يُحْسِنُ بالله الظَّنَّ »[1].

وروى الفضيل، عن منصور ، عن خيثمة، قال:

قيل لعبد الله بن عمرو: إن ابن مسعود يقول:

« إنَّ الرجلَ ليَسْبَحُ في عَرَقِهِ حتَّى يبلغَ أنْفَهُ ».

فقال عبد الله بن عمرو:

« إنَّ للمُؤمنينَ كَرَاسيَّ منْ لؤلؤٍ يَجلسونَ عليها، ويُظَلَّلُ عليهمْ بالغَمَامِ، ويكونُ يومُ القيامةِ عليهم كساعةٍ منْ نَهارٍ، أو كأحدِ طَرَفَيه».

وروى الفضيل، عن سليمان الشيباني وبيان بن بشر، عن قيس ابن أبي حازم، عن المستورد بن شدَّاد قال: قال رسول الله ﷺ :

---

(١) ثابت مشهور من حديث جابر .

« مَـا الدُّنيا فى الآخِـرَةِ إلا كمَـا يَجْـعَلُ أحَدُكم إصْـبَعَـهُ فى اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ ».

وروى الفضيل بن عياض، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ :

« مـا حَقُّ امْـرِئٍ مُسْلمٍ له شَـىءٌ يُوصِي فيـهِ، أنْ يَبيتَ لَيلتينِ إلا ووَصيتُهُ مكتوبةٌ عِنْدَهُ »[1].

وروى الفضيل، عن الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن أبى عبد الرحمن السلمى،عن عبد الله بن مسعود، قال:

قال رسول الله ﷺ :

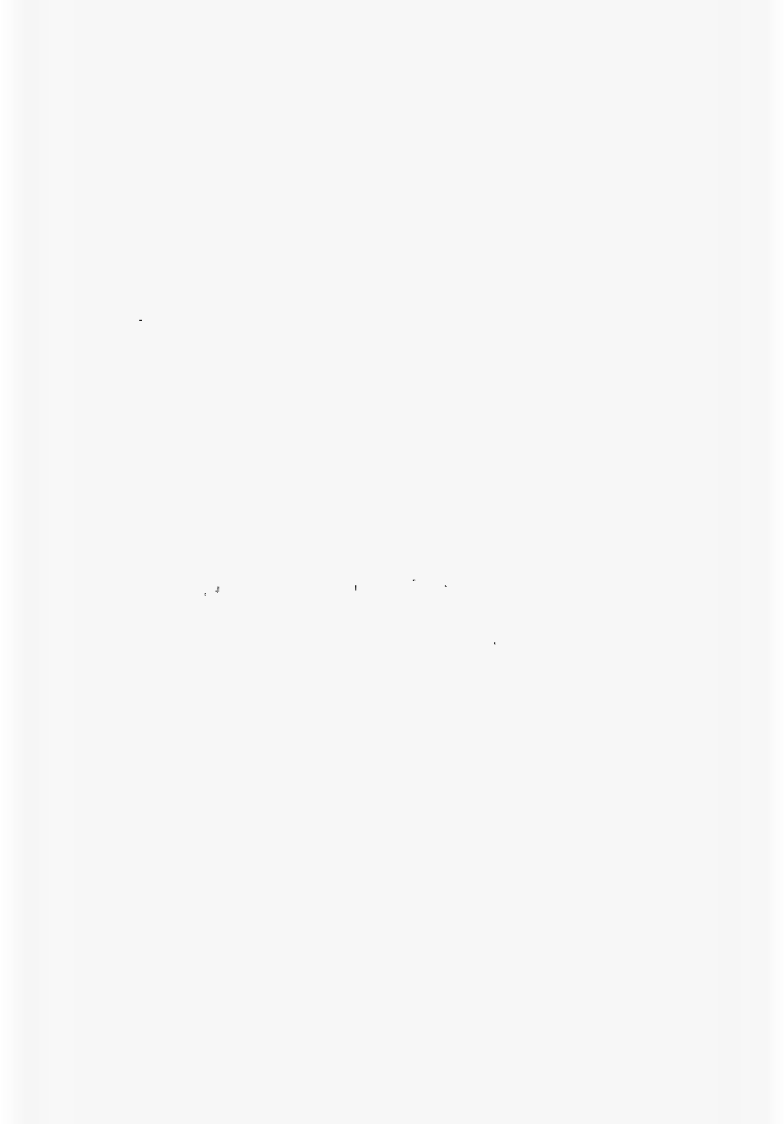
« مَنْ أُشْرِبَ قَلْبُهُ حُبَّ الدنيا الْتَاطَ [2] منه بثلاث:

شَقَاءٍ لا يَنْـفَدُ، وحِرْصٍ لا يَبلغُ غِنَاهُ، وأمَلٍ لا يبلغُ مُنْتَهَـاهُ، والدُّنيا طالبةٌ ومطلوبةٌ.. فمَنْ طلبَ الدُّنيا طَلَبَـتْهُ الآخرةُ.. ومَنْ طلبَ الآخِرةَ طَلَبَتْهُ الدُّنيا، حتَّى يَستوفِيَ مِنْها رِزْقَه ».

***

(١) صحيح من حديث عبيد الله .

(٢) التاط : التصق .



الفصل السادس

الإيمَـــان

إن الإيمان يُثمر ـ إذا كان صادقاً قوياً ـ الأخلاق الكريمة..

والأخلاق الكريمة عنصر من أهم عناصر التصوف، ولا يوجد تصوف ما لم يكن الأساس الخُلق الكريم.

ولقد حبَّب الله الإيمانَ إلى الفضيل، وزيَّنه في قلبه، وكَرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فكان من الراشدين . فضلاً من الله ونعمة، والله عليم حكيم.

لقد كانت الأخلاق الكريمة امتداداً لإيمانه، وكان تَصوُّفه كأنه امتدادٌ لأخلاقه الكريمة..

ومن أجل ذلك.. كتبنا عن هذه الأمور على التوالي:

الإيمان ـ الأخلاق ـ التصوف.

عن الإيمان يروى الفضيل ـ بسنده ـ عـدة أحاديث . منها : ما رواه عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله ابن الحارث، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ :

« شكى نبيٌّ من الأنبياءِ إلى ربه ـ عز وجل ـ فقال:

يا ربُّ: يكون العبدُ من عبيدكَ، يؤمنُ بكَ ويعملُ بطاعتكَ؛ فتَزْوِي عنه الدُّنيا، وتعرضُ له البَلاءَ.. ويكونُ العبدُ من عَبيدكَ.. يكفرُ بكَ، ويعملُ بمعاصيكَ، فتَزْوِي عنه البَلاءَ، وتعرضُ لَهُ الدُّنيا.. فأوحَى الله ـ عز وجل ـ إليه:

« إنَّ العبَادَ والبِلادَ لي، وإنه ليسَ منْ شيءٍ إلا وهو يُسبِّحُني ويُكبِّرني ويُهلِّلني.. أمَّا عَبْدي المؤمنُ فَلَهُ سيِّئاتٌ فأزْوِي عنه الدُّنيا، وأعرضُ له البلاءَ، حتَّى يأتِيَني فأجْزِيه بحسناته.. وأما عبدي الكافرُ فله حسناتٌ، فأزوِي عنه البلاءَ، وأعرضُ له الدُّنيا، حتَّى يأتِيَني فأجْزِيه بسيِّئاتِه »..

ومنها ما رواه ـ بسنده ـ عن رسول الله ﷺ قال:

« لا يَزْنِي الزَّانِي حينَ يَزني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الشاربُ حينَ يشربُ وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حينَ يسرقُ وهو مؤمنٌ، والتوبةُ معروضةٌ بعدَ ذلكَ ».

وهذا الحـديث ثابت وصحـيح من حديث الأعـمش، رواه عنه الأئمة.

ومنها ما رواه الـفضيل،عن الأعمش، عن أبى سـفيان، عن أنس ابن مالك، قال:

« كان النبى ﷺ يكثر أن يقول:

« يا مُقلِّبَ القلوبِ: ثبِّتْ قُلوبَنا على دِينكَ »..

قالوا: يا رسول الله، تخاف علينا وقد آمنَّا بك ؟

قال: ما مِنْ قلـبٍ إلا وهُوَ بينَ إصبعينِ مِنْ أصَابـعِ الرحمنِ.. فإنْ شَاءَ أقَامَهُ،وإنْ شَاء أزَاغَهُ ».

ومنها ما رواه الفضيل، عن منصور، عن ربعىٍّ، عن حذيفة، عن النبى ﷺ قال:

« كـان رجلٌ يُسـيءُ الظَّـنَّ بعـمله . . فـقـالَ لأهـله : إذَا أنَـا متُّ فاحْـرِقُونى، ثُمَّ اطْحَنُونى، ثُمَّ ذرُّونى فى البَـحْرِ فى يومٍ عَـاصفٍ، فإنَّ ربِّى إنْ قَدَرَ علىَّ لـمْ يغفرْ لى.. فلماَّ ماتَ فَعَلُوا به ذلكَ، فَجَمَعَهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فـقالَ: ما حَـمَلَكَ علَى الذِى فعلتَ؟ قال: مـا حَمَلَنى إلا مَخافَتُك.. فغفرَ لَهُ »[1].

والفضـيل يتحدث عن كثـير من زوايا الإيمان ، ونورد فيـما يلى بعض ذلك:

---

(١) روى البخارى نحوه .

استكمال الإيمان:

عن إبراهيم بن الأشعث قال:

« سمعت الفضيل يقول:

«يا سَفيهُ ما أجهلَك.. ألا تَرْضَى أن تقولَ أنا مؤمنٌ، حتَّى تقولَ أنا مُستَكمِلُ الإيمان ؟..

لا.. والله لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّى يؤدِّيَ ما افترضَ اللهُ تعالى عليه، ويجتنبُ ما حَرَّمَ اللهُ تعالى عليه، ويَرْضَى بما قَسَمَ اللهُ تعالى له، ثم يخافُ مَعَ ذلكَ أنْ لا يتقبَّل مِنهُ ».

من صفات المؤمن:

عن محمد بن أحمد بن يزيد ومحمد بن جعفر، قالا:

حدثنا إسماعيل بن يزيد، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« الغِبْطَةُ مِنَ الإيمانِ، والحسَدُ مِنَ النِّفَاق، والمؤمنُ يَغبطُ ولا يَحْسُدُ.. والمنافق يَحْسدُ ولا يَغبِطُ،والمؤمنُ يَسْتُرُ ويَعِظُ وينَصَحُ، والفَاجِرُ يَهتِكُ ويُعيِّرُ ويُفْشي»..

قال: وسمعت الفضيل يقول:

« وَعِزَّتِه لَوْ أدْخَلَنِي النَّارَ، فَصِرْتُ فِيهَا، مَا يَئِسْتُهُ». .

وقال: سمعت فضيلاً يقول:

« كانَ يُقَالُ: مِنْ أَخْـلاَقِ الأنبياءِ، والأصْـفيـاءِ الأخْيَـارِ، الطاهِرةِ قلوبُهم، خلائقُ ثلاثةٌ: الحِلْمُ، والأَنَاةُ، وحَظٌّ مِنْ قيامِ الليلِ ».

المؤمن صادق:

يقول الفضيل:

« عَامِـلِ اللهَ بالصِّدْقِ فى السِّـرِّ، فإنَّ الرَّفِـيعَ مَنْ رَفَعَـهُ اللهُ.. وإذَا أَحَبَّ اللهُ عبداً أسْكَنَ مَحَبَّتَهُ فِي قُلوبِ خَلْقِهِ».

خوف الله :

« مَنْ خَافَ اللهَ لمْ يَضُرَّهُ شَىْءٌ، ومَنْ خافَ غَيْرَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ شَىْءٌ ».

المؤمن لا ييأس :

« وعِزَّتِهِ وجَلالِهِ، لَوْ أَدْخَلَنِى النَّارَ وصِرْتُ فِيها ما أَيِسْتُ مِنْهُ».

المؤمن لا يشكو :

عن خلف بن الوليد يقول:

« جاء رجل إلى الفضيل يشكو إليه الحاجة ، فقال له:

« أَمُدَبِّرًا غيرَ اللهِ تُرِيدُ ؟..».

المؤمن لا يكون مغموماً :

ورأى الفضيل رجلاً مغموماً فقال:

« أَتَخْشَى أَنْ يكونَ لكَ رزقٌ لا تَسْتَوفيه ؟» . قال: لا. قال: «فَتَخْشَى أَنْ يكونَ غيرُ ما شاءَ اللهُ ؟ » . قال: لا. قال: « فلأيِّ شيءٍ غَمُّكَ ؟» . .

المؤمن لا تستعبده الدنيا :

عن عبد الله بن محمد قال: حدثنا أحمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا الفيض بن إسحاق، قال: سمعت الفضيل يقول:

« لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يَعُدَّ البلاءَ نعمةً، والرَّخَاءَ مصيبةً، وحتَّى لا يُبالى مِنْ أكلِ الدنيا، وحتَّى لا يحبَّ أنْ يُحْمَدَ علَى عبادةِ اللهِ - عزَّ وجلَّ » .

وعن الحسين بن زياد المروزى قال:

سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« حَرَامٌ على قُلُوبِكُمْ أنْ تُصِيبوا حلاوةَ الإيمانِ حتَّى تَزْهَدُوا فى الدُّنيا » .

هيبة الخَلْق للمؤمن :

يقول الفضيل:

« يَهَابُكَ الخَلْقُ عَلَى قَدْرِ هَيْبَتِكَ للَّهِ ».

المؤمن والمنافق :

عن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

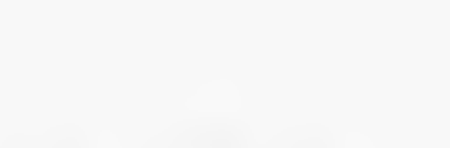
« المؤمنُ قليلُ الكلامِ، كثيرُ العَمل. والمنافقُ كثيرُ الكلامِ، قليلُ العملِ. كلامُ المؤمنِ حِكْمَةٌ ، وصَمْتُه تَفَكُّرٌ، ونَظَرُهُ عِبْرَةٌ، وعَمَلُهُ بِرٌّ، وإذا كنتَ كذا.. لمْ تَزَلْ فى عِبادةٍ ».

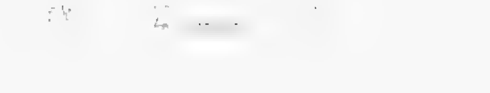
***

الفصل السابع

الأخــــلاق







إن البحث فى الأخلاق، إنما هو البـحث عن سعادة الإنسان التى يسعى إليها بسلوكه..

غاية الأخلاق ـ إذن ـ إنما هى البحث عن السعادة :

البحث عنها من حيث ماهيَّتها وتحديدها.

فإذا ما حددت السعادة، اتجه الباحث إلى تحديد أمرين:

أحدهما: الوسيلة التى تؤدى إليها.. الوسـيلة الملائمة التى تصل بالإنسان خطوة خطوة إلى السعادة.

والثانى: هو التعريف بما يتنافى مع السعادة، من أجل أن يتحاشاه الإنسان.

والكاتبـون عـن الأخـلاق، في شـرقنا العـربى وفى مـحـيطنا الإسلامى، ينهـجون ـ فى ذلك ـ النهج الأوربى، فـيبدءون بـالكتابة عن مـذهب **سقراط** فى السـعادة، مـحددين لهـا عنده، وشارحـين الطريق الذى يراه فى الوصول إليـها، والطريق الذى يراه فيـما يتنافى معـها، ثم يـشرحون مـذهب **أفلاطون**، ويتسـلسلون مع الفلاسـفة العقليـين إلى أن يصلوا إلى الاسلام، فـيتـرك بعضهم الـحديث عنه ويتجاوزه إلى النهضة الحديثة فى أوربا.

وبعضهم يتحدث عن الأخلاق فـى الإسلام فلا يتجه إلى الكتاب والسُّنة، وإنما يتجه إلى بعض الفلاسـفة العقليين فى الجو الإسلامى

الذين ساروا على النهج اليونانى، فيتحدث عن مذاهبهم العقلية فى بحثهم عن السعادة.

وهؤلاء الفلاسفة المسلمون، الذين نهجوا النهج اليونانى، لا يمثلون الإسلام، وإنما يمثلون عقولهم البشرية.

والفلاسفة العقليون ـ قديمًا وحديثًا ـ إنما يمثلون ـ دائماً ـ عقولهم الفردية البشرية.. ومن أجل ذلك اختلفوا وتعارضوا وتضاربوا، ولم يصلوا إلى اتفاق فيما يتعلق بتحديد السعادة، ولا فيما يتعلق بوسائل الوصول إليها، ولا فيما يتعلق بالوسائل التى تتنافى معها.. ونتج عن ذلك مذاهب فى الأخلاق بعدد من نبغ من الفلاسفة.

وتكاد لا تجد من يتجه إلى الجو الإسلامى البحت: جو الكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسلوك رسول الله ﷺ فى ذلك.

وقبل أن نصل إلى شىء من البيان عن رأى الفضيل فى الأخلاق، نحب، بتوفيق الله، أن نتحدث ـ فى إيجاز ويسر ـ عن الجو الإسلامى، فيما يتعلق بالسعادة.

إن من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه، أن يرسم لهم ـ سبيل السعادة فى دنياهم وفى أخراهم.. وهو طريق لا استحالة فيه، ولا مشقة حقيقية.. وقد جرَّبه الكثيرون ففازوا بالسعادتين:

لقد استراحوا فى هذه الحياة الدنيا.. لقد غمرهم الرضا وأحاط بهم الاطمئنان ولَفَّتهم أرْدِيَةُ السعادة.

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الآخرة.. يظلهم بظله يوم

لا ظل إلا ظله، ويكفل لهم عدم الخزى حين يغمر الخزى كثيراً من الخلائق، ويدخلهم الجنة برحمتـه، ويريهم وجهه الكريم تفضُّلاً منه سبحانه.

هذه السعادة فى الدنيا والآخرة وعد الله بتـحقيقها لكل من توافر فيه شرطان:

الأول: الإيمان.

الثانى: العمل الصالح.

يقول سبحانه:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

لقد وعد الله بتحقيق الحياة الطيبة فى هذه الآية الكريمة لكل فرد تحقق فيـه الشرطان.. ونَصَّ الله سبحانه فيـها على الأنثى.. وسَوَّى بين الذكر والأنثـى.. فى ذلك دعوة صريحـة أو ضمنية لـلنساء إلى القيام بـالعمل الصالح، والتحلِّى بمكارم الأخـلاق، مثلهن فى ذلك مثـل الرجال سواء بـسواء، وذلك حتـى تَعُمَّ السعـادة جميـع أفراد الأسرة.

وذكر الله سـبحـانه ثمرة تحـقيق هذين الشرطيـن فى صورة من التأكيد المؤكّد، وهى: الحياة الطيبة فى هذه الدنيا.. والحياة الطيبة إنما هى السعادة.

---

(١) سورة النحل : ٩٧.

ثم بيَّن سبحانه ـ أيضاً ـ في صورة من التأكيد المؤكّد، أنه سيجزيهم في الآخرة، وأن جزاءهم سوف لا يكون على مستوى متوسط أعمالهم، وإنما سيكون بأحسن ما كانوا يعملون.

هذه السعادة تتحقق للفرد باعتباره فرداً؛ إذا حقق ما اشترطه الله سبحانه. وتتحقق للأسرة باعتبارها أسرة؛ إذا تكاتف أفرادها متعاونين متضامنين على توفير الشرطين.. يرى كل من أفرادها أنه مسئول عن نفسه وعن الآخرين، فيتناصحون من أجل سعادتهم.

ألم تر إلى سيدنا إسماعيل ؟.. لقد كان في نفسه صادقَ الوعد، أي أنه صَدَقَ مع الله في عهد الإيمان والعمل الصالح.

ولقد كان ـ بالنسبة لأسرته ـ يأمر أهله بالصلاة والزكاة.. ومن أجل ذلك: كان عند ربه مَرْضِياً.

وبعد.. فإن هذا قانونٌ إلهيٌ عامٌ: ليس خاصّاً بسيدنا إسماعيل، ولا بفرد معين، وإنما هو شامل لكل من انضوى تحت لواء الإيمان والعمل الصالح.

وقد بيَّن الله سبحانه، عمومه في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وبيَّن سبحانه أنه كما يشمل الفرد، وكما يشمل الأسرة، فإنه يشمل ـ أيضاً ـ المجتمع.

فالمجتمع الذي يحقق الشرطين يصل إلى السعادة.

***

وسواء أكُنّا بصدد الإيمان، أو بصدد العمل الصالح، فإنه لابد من الإخلاص.. وللإخلاص فى الجو الإسلامى مكانته الكبرى..

فعن أنس بن مالك ـ فيما رواه الحاكم وصحَّحه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

« مَنْ فَارَقَ الدُّنيا على الإخْـلاَص للَّه وَحْـدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأقَامَ الصَّلاةَ، وآتَى الزَّكَاةَ، فَارَقَهَا واللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ ».

والواقع: أن الإخلاص فى العمل، وفى السلوك، وفى الحياة ـ على وجه العموم ـ أصل من أصول الدين الإسلامى، لا يستقيم الدين إلا به.. حتى لقد سُئل رسول الله ﷺ عن معنى الإيمان، فقال ـ فيما رواه البيهقى ـ:

« الإيمانُ هُوَ الإخْلاَصُ »..

والإخلاص المقصود: هو الإخلاص لله.. أى أن يكون الله وحده هو المقصود بالعمل.

ومثل ذلك: أن العامل ـ مثلاً ـ يتقن عمله، ولو لم يكن هناك مِنْ رؤسائه مَنْ يحاسبه على عدم إتقانه.. والتاجر يَصْدُقُ ولو لم يكن من مواد القانون ما يعاقبه على عدم صدقه.. والمصلِّى يقيم الصلاة ولو لم يكن هناك مَنْ ينظر إليه مُصَلِّيًا ـ وهكذا يراعى كلُّ إنسانٍ اللهَ وحده فى عمله.. فيصبح العمل ـ حتى ما كان منه مغرقاً فى مظهره الدنيوى ـ عبادة يُثاب عليها الإنسان.

روى الإمام مسلم ﷺ عن أبى ذر ﷺ أن ناساً قالوا:

«يا رسول الله.. ذَهَبَ أهلُ الدثورِ بالأُجورِ، يُصَلُّون كَمَا نصلِّى.. ويَصومونَ كما نصومُ.. ويتصدَّقون بفُضولِ أموالهم »..

قال: «أوَ لَيْس قَدْ جعلَ اللهُ لَكُمْ ما تَصَدَّقونَ به ؟.. إن بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً، وكلُّ تكبيرةٍ صَدَقة، وكلُّ تحميدةٍ صَدَقة، وكلُّ تهليلةٍ صَدَقَة.. وأمرٌ بالمعروفِ صَدَقةٌ، ونَهْىٌ عن منكرٍ صَدَقَةٌ، وفى بُضْعِ أحَدِكُمْ صَدَقةٌ».

قالوا: يا رسول الله !.. أيأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ ..

قال: « أرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فى حَرَامٍ.. أكَانَ عَلَيهِ فيها وِزرٌ ؟.. فَكَذَلِكَ إذَا وَضَعَهَا فِى الحَلالِ كَانَ لَهُ أجْرٌ ».

والأساس الذى تقوم عليه الأعمال من حيث كونها عبادة ، ومن حيث الثواب عليها، هو النية.. يقول ﷺ ـ فيما رواه البخارى ـ:

« إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى..فمَنْ كانتْ هِجْرَتُهُ إلى الله ورسوله، فهجْرتُه إلى الله ورسوله.. ومَنْ كانتْ هِجْرَتُهُ إلى دنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه ».

إن هجرة الإنسان بعمله إلى الله ـ أى: إرادته بعمله وَجْهَ الله ـ يجعل من عمله عبادة، يُؤْجَر عليها ويثاب.. أما من كانت هجرته بعمله ـ أي: إرادته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته ـ أى: عمله ـ إنما هو عمل دنيوى لا أجر عليه ولا ثواب.. حتى ولو كان العمل يتفق فى مظهره مع الأعمال الصالحة.

ولقد هاجم الإسلام ـ فى عنف عنيف ـ كل مظهر لا يراد به وجه الله.. وكل عمل مصدره الرياء والزُّلْفَى وحب الشهرة، وطلب إرضاء البشر دون مراعاة الله سبحانه.

روى البزار والبيهقى، عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه، أن الله تبارك وتعالى يقول:

« أنا خَيرُ شَريكٍ.. فمَنْ أشركَ معى شريكًا فهو لشَريكى.. يا أيُّها الناسُ ، أخْلصوا أعمالَكم .. فإنَّ اللهَ تعالى لا يقبلُ منَ الأعمالِ إلا ما خَلَصَ له.. ولا تقولوا: هذه لله وللرَّحِم.. فإنها للرَّحِمِ، وليس للهِ فيها شيءٌ..ولا تقولوا:هذه للهِ ولوُجُوهِكُمْ.. فإنها لوجوهكمْ، وليس لله منها شيءٌ » ..

وأحاديث رسول الله ﷺ فى هذا المعنى كثيرة.. والقرآن الكريم مصرِّح فى كثير من آياته بأن العمل الذى يثاب عليه الإنسان، إنما هو العمل الذى أخلص صاحبه فيه.. أى أن يكون العبد ـ كما يقول أبو سعيد الخراز ـ لا يرجو إلا الله،ولا يخاف إلا الله ، ولا يتزين إلا لله، ولا يأخذه فى الله لومة لائم.

وبعد.. فإن رسول الله ﷺ يقول ـ فيما يرويه الإمام مسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«**إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجْسَامِكم،ولا إلى صُوَرِكُمْ.. ولكنْ ينظرُ إلى قُلوبِكُم**»..

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ حين أراد إرساله إلى اليمن:

«يا رسول الله.. أوْصِنى.

فقال ﷺ:

« **أخْلِصْ دِينكَ يكْفِكَ العَمَلُ القَلِيلُ** ».

ولن يتوفر الإخلاص، ما لم يتجه الإنسان إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح. والتوبة لها مكانة سامية فى الإسلام..وهى تستتبع العمل ـ لا محالة ـ إذا كانت صادقة.. إن لها شأنها فى الإسلام..

ولقد مَرَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على رجل يذكِّر الناس بالله ويشتد فى الترهيب من عذاب الله وعقابه، ويستفيض حتى ليوشك أن يقنِّط الناس من رحمة الله.. فقال له:

«يا مُذَكِّر: لِمَ تقنِّط الناسَ من رحمة الله ؟ .. ثم قرأ:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1]..

---

(١) سورة الزمر: ٥٣.

وهذه الآية الكريمة التى يقول رسول الله ﷺ عنها:

« **مَا أُحِبُّ أنَّ لى الدُّنيا ومَا فِيها بِهذِهِ الآيةِ** ».

هى ابتداء ثمان آيات تحدد جانباً من الصلة بين الله وعباده.. إنها تفتح باب رحمة الله على مصراعيه.

ثم تتلوها آية تحدد الكيفية التى ينال بها الإنسان رحمة الله ومغفرته.. يقول سبحانه:

﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾[1].

وبهذه الآية الكريمة أصبح الأمر واضحاً..

فباب رحمة الله مفتوح للتائبين المخلصين الصادقين فى توبتهم.

إنه مفتوح لهؤلاء الذين تصل بهم توبتهم إلى أن يسلموا له وجوههم، فيصبحوا من عباده المخلصين.

وتحدد الآية الثالثة، كيفية إسلام الوجه لله الذى هو ثمرة التوبة الصادقة، فتقول:

﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾[2]..

فاتِّباع أحسن ما أنزل الله، هو الثمرة التى تثمرها التوبة.

(١) سورة الزمر: ٥٤.

(٢) سورة الزمر: ٥٥.

إن التوبة تضع الإنسان فى مرتبة البراءة.. إنها تمحو السيئات فتجعل صحيفة الإنسان بيضاء صافية طاهرة.. وهى مرتبة عظيمة فى موازين الدين.. ولابد ـ بعد ذلك ـ من ملء الصحيفة بالصالحات من الأعمال، وذلك باتباع ما أنزل الله..

ثم يبين الله سبحانه وتعالى فى الآيات الثلاث التى تتلو.. بعض ما عسى أن يتمحَّله[1] فى الآخرة ـ من معاذير ـ بعضُ من لم يتوبوا ..! ما عساهم أن يقولوا ؟..

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

إن هذه كلها معاذير لا تُجدى ولا تُفيد.. فالله سبحانه وتعالى يرد عليها جميعاً فى قوة قائلاً:

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[3]..

ثم يبين الله سبحانه العاقبة التى تنتظر المكذِّبين والمنافقين

---

(١) المماحَلة: المماكرة والمكايدة. وتمحَّل احتال. والمراد به هنا: التماس أعذار كاذبة.

(٢) سورة الزمر : ٥٦ ـ ٥٨ .

(٣) سورة الزمر : ٥٩ .

والكافرين وكل من انحرف عن صراط الله المستقيم، فيقول سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1].

وإذا كان هذا في شأن المنحرفين ، فإن الله سبحانه وتعالى يبين مصير الذين استجابوا لدعوته وندائه:

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

أما بعد.. فإن الخطوة الأولى فى الطريق إلى الله،إنما هى التوبة الخالصة النصوح، والتوبة خطوة تفصل دائماً بين عهدين..وهى نور يستقبل به الإنسان حياته الجديدة.

ومن أجل ذلك يقول الشرع: إن التوبة تَجُبُّ ما قبلها. أى: تمحوه وتزيله.

إنها ابتداء لحياة الطهر والصفاء، وحياة الاستجابة لله.. وإذا استجاب الإنسان لله ورسوله ، بَاعَدَ الله بينه وبين الخوف والحزن،ومنحه الرضا والسعادة فى الدنيا والآخرة.

***

---

(١) سورة الزمر : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر : ٦١ .

وما من شك فى أن طريق السعادة هو طريق الفلاح . .

إنهما يلتقيان أساساً وغاية، ويكونان وحدة متحدة. . والله تعالى برسمه طريق الفلاح يرسم فى الوقت نفسه طريق السعادة. . وبرسمه طريق السعادة يرسم طريق الفلاح.

ولقد رسم الله سبحانه فى آياته الكريمة طريق الفلاح، قال تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[1].

والركوع والسجود علامتا الخضوع لله سبحانه، والتواضع له. . إنهما العلامتان الظاهرتان. . ويجب أن تصحبهما علامة باطنية هى خضوع القلب، أو سجود القلب. . وسجود القلب ظاهرة يجرى وراء تحقيقها الصالحون كفاية سامية فى أعراف المتقين.

إن التعبير الجارى الذى يقول: « **مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ** ». . إنما يعنى ـ على الخصوص ـ هذا الذى تواضع لله سبحانه بقلبه، وهو يجارى قوله ﷺ ـ فيما رواه الإمام مسلم ـ عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ . . قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« **عَلَيكَ بكثرة السُّجود، فإنَّكَ لنْ تسجدَ لله سجدةً إلا رَفَعَكَ اللهُ بِها درجةً، وحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئةً** ».

وذلك كله متابعة لقول الله تعالى:

---

(١) سورة الحج : ٧٧.

﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1].

أى: تواضعْ لله سبحانه، واخْشَعْ له، واخْضَعْ ، فإن ذلك وسيلة القرب منه سبحانه، والقرب من الله هو منتهى الرفعة للإنسان.

ويقول رسول الله ﷺ :

« أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ».

وينصح رسول الله ﷺ ، أن يدعو الإنسان ربه، وهو فى هذه الدرجة من القرب، قائلاً:

« فَادْعُوا فِى سُجُودِكُمْ، فَقَمِنٌ[2] أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ».

والسجود الذى يريده الله ورسوله، هو ـ على الخصوص ـ المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه الشعور القلبى الروحى بجلال الله وعظمته، والذى تُصوِّره هذه الشارة المعروفة من وضع الجبهة على الأرض: تمثل الخضوع لجلال الله وعظمته، والانقياد المطلق لحكمته الرحيمة، وعظمته الحكيمة، ووُدِّه القريب، وتقرُّبه ممن تقرَّب إليه.

ومن الأحاديث ذات المغزى العميق فى هذا: ما رواه الإمام مسلم ـ بسنده ـ عن أبى فراس الأسلمى ـ خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصُّفَّة رضي الله عنه ـ قال:

---

(1) سورة العلق : ١٩.

(2) القَمِن، والقَمَن، والقمين : الجدير بالشىء .

« كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال: « سَلْنِى ».. فقلتُ: أسألك مرافقتك فى الجنة.

قال: « أو غيرَ ذلك ؟ ».

قلت : هو ذاك.

قال: « أعِنِّى على نَفْسِكَ بكثرة السُّجُود ».

السجود - إذن - تعبير عن التطامن لله سبحانه، وعن الخشية والخضوع - وهو من أجل ذلك سبيل إلى الجنة.. فما دام الإنسان يخشى الله، فإنه يقوم بالواجبات والفروض، وينتهى عما نهى الله عنه، وذلك هو التقوى.. وذلك هو معنى العبودية التى أمر الله سبحانه وتعالى بها كثيرًا فى القرآن، وأمر بها فى الآية التى نحن بصددها، فقال :

﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾(١).

وإذا ما خشى الإنسان ربه، فإنه - لا محالة - فاعل للخير، وذلك أن التزام أوامر الله، واجتناب نواهيه، هو الخير كل الخير.

فإذا ما حقق الإنسان السجود لله بمعناه الصحيح، كان قد حقق سلوك طريق الفلاح فى الدنيا، وسلوك طريق الفلاح فيما يتعلق بالآخرة.

أما فى الدنيا: فإن الله سبحانه قد تكفَّل بمن سجد له متمثلاً العبودية.. يقول سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾(٢)؟..

---

(١) سورة الحج : ٧٧.

(٢) سورة الزمر : ٣٦.

ويقول:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(١) . .

ويقول تعالى - فى عموم وشمول - عن الذين آمنوا وكانوا يتقون:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢) . .

هذه هى السعادة فى الجو الإسلامى، إنها الإيمان والعمل. وطريقها يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح، وليس له دون الله منتهى. . يقول تعالى:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾(٣) . .

فمن سار فى هذا الطريق انتهى به الأمر إلى السعادة.

ولقد أخذ الفضيل يحث الناس بقوله وسلوكه إلى هذا الطريق.

وفيما يلى كلمات ترشد إلى الروح الإيمانية التى كان يحاول توجيه الناس إليها:

---

(١) سورة الطلاق: ٢، ٣.
(٢) سورة يونس: ٦٢ - ٦٤.
(٣) سورة النجم: ٤٢.

عن محمد بن زنبور قال: سمعت الفضيل يقول:

« رَهْبَةُ العَبْدِ مِنَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ علَى قَدْرِ عِلْمِه، ورَهْبَتُهُ مِنَ الدُّنيا على قَدْرِ رَغْبَتِهِ فى الآخِرَةِ ».

وقال الفضيل لسفيان بن عيينة:

« وَيْلٌ لكَ إنْ لَمْ يَعْفُ عنكَ.. إذَا كُنْتَ تَزْعُمُ أنَّكَ تَعْرِفُهُ، وأنْتَ تَعْمَلُ لغَيْرِهِ ».

وعن عبد الصمد قال: سمعت الفضيل يقول:

« عَامِلُوا اللَّهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ بالصِّدْقِ فى السِّرِّ، فإنَّ الرَّفِيعَ مَنْ رَفَعَهُ اللَّهُ.. وإذا أحَبَّ اللهُ عبداً أسْكَنَ مَحَبَّتَهُ فى قُلُوبِ العِبَادِ ».

وعن محمد بن قطن قال: قال الفضيل بن عياض:

« إنَّما يَهابُكَ الخَلْقُ على قَدْرِ هَيْبَتِكَ للَّهِ ».

وعن هناد بن السرى قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« مَا مِنْ ليلة اختلطَ ظَلامُها، وأرخَى الليلُ سِرْبَالَ سِتْرِها، إلا نَادَى الجليلُ جَلَّ جَلالُهُ:

«مَنْ أعظَمُ منِّى جُودًا، والخَلائِقُ لى عَاصُونَ، وأنَا لَهُمْ مُرَاقِبٌ.. أكْلَؤُهُمْ فى مَضَاجِعِهِمْ كأَنَّهُمْ لَمْ يَعْصُونِى، وأتولَّى حِفْظَهم كأنَّهم لَمْ يُذْنِبُوا..

مَنْ بَيْنِي وبَيْنَهُمْ: أجُودُ بالفَضْلِ علَى العَاصِي ، وأتَفَضَّلُ علَى المُسِيءِ..

مَنْ ذَا الذِي دَعَانِي فَلَمْ أسْمَعْ إليه ؟.. ومَنْ ذا الذِي سَألَنِي فَلَمْ أُعْطِه ؟.. أمْ مَنْ ذَا الذِي أنَاخَ بِبَابِي ونَحَّيْتُهُ ؟.. أنا الفَضْلُ ومنِّي الفَضْلُ.. أنا الجُودُ ومنِّي الجُودُ، أنا الكَرِيمُ ومنِّي الكَرَمُ، ومن كَرَمِي أنْ أغفِرَ للعَاصِي بعدَ المعَاصِي، ومنْ كَرَمِي أنْ أُعْطِيَ التَّائِبَ كأنَّهُ لَمْ يَعْصِنِي.. فَأينَ عنِّي تَهرُبُ الخَلائِقُ ؟.. وأينَ عَنْ بابِي يَتَنَحَّى العَاصُونَ ؟ »..

وعن الفيض بن إسحاق قال: سمعت الفضيل يقول:

« ليسَتِ الدارُ دارَ إقامة، وإنما أُهبط آدمُ إليهَا عقوبةً.. ألا تَرى كيفَ يَزْوِيها عن المؤمنِ، ويمرّرها عليه بالجُوعِ مَرَّةً، وبالعُرْيِ مَرَّةً، وبالحاجةِ مَرَّةً، كما تصنعُ الوالدةُ الشفيقةُ بولدها، تَسقيه مَرَّةً حَضيضاً، ومَرَّةً صَبْراً ، وإنما تريدُ بذلكَ ما هو خيرٌ له ؟ ».

قال: وقال لى الفضيل:

« تريدُ الجنةَ معَ النبيِّينَ والصِّدِّيقينَ، وتريدُ أن تقفَ الموقفَ معَ نوحٍ وإبراهيمَ ومحمدٍ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام.. بأىِّ عملٍ..وأىِّ

شهـوة تركتَـها لله عـزَّ وجلَّ ؟.. وأيَّ قريبٍ بَاعَـدْتَه في الله ؟..وأيَّ بعيدٍ قرَّبته في الله ؟».

قال: وسمعت الفضيل يقول:

« لا يتركُ الشـيطانُ الإنسانَ حتَّى يحتـالَ له بكلِّ وَجْه، فيَسـتخرجَ منهُ ما يخبرُ بـه مِنْ عمله.. لعلَّه يكونُ كثيرَ الطَّواف ، فيـقول: ما كانَ أحلَى الطوافَ الليلة ؟!.. أو يكونُ صائماً فيـقول: ما أثقلَ السّحورَ، أو ما أشدَّ العطش ؟!.

فإن استـطعتَ أن لا تكونَ محدِّثًا ولا متكلِّمـاً ولا قارئًا . إن كنتَ بليغًا قـالوا:ما أبلَغه وأحسنَ حَـديثه، وأحسنَ صَوته، فيـعجبكَ ذلكَ فـتَنتفخ.. وإنْ لـم تكنْ بليـغـاً ولا حسنَ الصَّـوتِ قالوا: ليسَ بحَـسنِ يحدِّث، وليس صـوتُه بحَسنٍ، أَحْـزَنكَ وشقَّ عليكَ، فتكونَ مُـرائياً.. وإذا جَلستَ فتكلَّمتَ، ولـم تُبَالِ مَنْ ذَمَّكَ ومَنْ مَدَحَكَ ؛ فتكلَّمْ.. ».

ودخل عليه قوم، فقال: « ممن ؟ ».

قالوا: من «خُراسان»..

قال:

« اتَّقوا اللهَ وكُونوا مِنْ حيثُ شئتُم، واعْلَموا أنَّ العبـدَ إذا أحْسَنَ الإحسَانَ كلَّه، وكانتْ له دَجاجةٌ فأساءَ إليهَا لمْ يكنْ مِنَ المُحْسنين».

وعن الفيض بن إسحاق، قال: سمعت الفضيل يقول:

« لَمْ تَرَ أقرَّ عَيناً مِمَّنْ خرجَ مِنْ شِدَّةٍ إلى رخَاء، ويُقدمُ على خيرِ مقدمٍ، وينزلُ على خيرِ منزلٍ، فإذا رأَى ما يَرى مِنَ الكرامةِ يقول: لَوْ عَلمتُ ما سألتُكَ إلا الموتَ.

ولمْ تَرَ يومَ القيامةِ أقرَّ عَيناً مِمَّنْ خرجَ مِنَ الضيِّقِ والشِّدَّةِ والجوعِ والعطشِ، ثم نزلَ على الجنة.. يقول الله:

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

ولم تَرَ يومئذٍ أسخنَ عَيناً مِمَّنْ خرجَ من الروحِ والسَّعةِ، والرخاءِ والنعمة، ثم نزلَ على النار.. يقول الله:

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2] ».

وعن إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« لو أنَّ الدنيا بحَذافيرها عُرضتْ عليَّ حَلالاً لا أحاسَبُ بها في الآخرةِ، لكنتُ أتقذَّرُها كما يتقذَّرُ أحدُكم الجِيفَةَ إذا مرَّ بها أن تصيبَ ثَوبَهُ »..

وعن إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل يقول:

---

(١) سورة النحل: ٣٢.

(٢) سورة غافر: ٧٦.

« لَنْ ينجوَ عبدٌ حتَّى يُؤْثِرَ دينَهُ على شَهوتِه، ولَنْ يَهْلِكَ حتَّى يُؤْثِرَ شَهوتَه على دينه » . .

ويروى الفضيل عن محمد بن سوقة، قال:

« أمران لَوْ لَمْ نُعذَّبْ إلا بِهِمَا لكنَّا مستحقِّين بهمَا لعَذابِ الله، أحدُنا يزادُ الشيءَ مِنَ الدنيا فيفرحُ بِه فَرحاً ما عَلِمَ اللهُ أنه فَرِحَ بشيءٍ زَادَه قَطُّ في دينِه.. وينقصُ الشيء مِنَ الدنيا فيحزنُ عليه حزناً ما عَلِمَ اللهُ أنه حَزِنَ على شيءٍ قَطُّ نَقصَه في دينه ».

ويروى الفضيل، عن حصين، عن بكر بن عبد الله، قال:

« الرَّجلُ عَبْدُ بطنه، عبدُ شهوته، عبدُ زوجته.. لا بقليلٍ يَقْنَعُ ولا مِنْ كثيرٍ يَشْبعُ، يَجْمَعُ لمنْ لا يَحْمَدُهُ، ويُقْدِمُ علَى مَنْ لا يَعذُرُه » . .

وعن إبراهيم الطبرى، قال: قال الفضيل:

« ما تزيَّن الناسُ بشيءٍ أفضلَ مِنَ الصِّدقِ، واللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ يسألُ الصَّادقينَ عَنْ صِدْقِهم، مِنْهم عيسَى بن مريمَ عليه السَّلام، كيفَ بالكذَّابينَ المساكينَ، ثم بكَى وقال: أتدرونَ في أيِّ يومٍ يسألُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عيسَى بن مريمَ عليه السَّلام ؟.. في يومٍ يجمعُ اللهُ فيهِ الأوَّلينَ والآخرينَ، آدمَ فمَنْ دُونَهُ، ثم قال:

« وكَمْ مِنْ قَبيحٍ تكْشِفُهُ القِيامةُ غَدًا » .

وعن إسحاق، قال: قال الفضيل:

« طُوبَى لمنِ اسْتَوحشَ مِنَ الناسِ وكَانَ اللهُ أنيسَهُ، وبكَى علَى خَطِيئته » .

وقال الفضيل:

« إنما جُعلت العِلَلُ ليُؤدَّبَ بها العُتاةُ، ليس كلُّ مَنْ مَرِضَ ماتَ » .

وقال رجل للفضيل: إن فلاناً يغتابني . .

فقال: « قَدْ جلَبَ الخيرَ جَلْباً » .

وقال عبد الصمد بن يزيد: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« أدركتُ أقوامًا يستحيونَ مِنَ اللهِ - في سَوادِ الليلِ - مِنْ طُولِ الهَجْعَةِ، إنما هو علَى الجنْبِ ، فإذا تحرَّكَ قالَ لنفسه: ليسَ هذا لكِ.. قُومي خُذِي حَظَّكِ مِنَ الآخرةِ » .

وقال الفضيل: قيل لإبراهيم: إنك لَتُطيلُ الفكرة.

فقال: «الفكرةُ مُخُّ العَمَلِ».

وعن الفضيل قال: قال الحسن:

« الفكرةُ مرآةٌ تُريكَ حَسناتكَ وسَيئاتكَ » .

وقال عبد الصمد: سمعت الفضيل يقول:

« إذا أتاكَ رجلٌ يشكو إليكَ رجـلاً فقلْ: يا أخى اعفُ عَنْـهُ .. فإنَّ العفوَ أقربُ للتَّـقْوَى .. فإنْ قالَ: لا يحتملُ قلبى العـفوَ ولكنْ أنتصرُ كما أمرنى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ..قل:

فإنْ كنتَ تُحسن تنتصرُ مثلاً بمثلٍ.. و إلاّ فارجعْ إلى بابِ العَفْوِ فإنه بابٌ أوسعُ ، فإنه مَنْ عفا وأصْلَح فأجْرُه على الله..

وصَاحِبُ العَفْـو ينامُ الليلَ علَى فِرَاشِه، وصَاحِبُ الانْـتِصَارِ يُقلِّبُ الأمورَ » .

وقال عبد الرحمن بن داود، حدثنا الفضيل بن عياض، قال:

« ما حُلِّيتِ الجنَّـةُ لأمَّـةٍ كما حُلِّيتْ لهـذهِ الأمـَّةِ ، ثُمَّ لا تَرى لهَا عَاشِقاً ».

وعن إسحاق بن إبراهيم، قال: قال رجل للفضيل:

كيف أصبحت يا أبا على ؟..

فكان يثقلُ عليه كيف أصبحت وكيف أمسيت ؟

فقال: «فى عافية».

فقال: كيف حالك ؟

فقال: « عَنْ أىِّ حالٍ تَسأل ؟..عَنْ حَالِ الدُّنيا، أم حَالِ الآخرةِ ؟..

إنْ كنتَ تسألُ عنْ حـالِ الدنيا، فإنَّ الدنيا قـدْ مَالَتْ بنا وذهبتْ بنا كُلَّ مَذْهَب..

وإنْ كنتَ تسألُ عن حال الآخرة، فكيفَ ترى حالَ مَن كثُرتْ ذُنوبُه، وضَعُفَ عَمَلُه، وفَنِي عُمْرُه، ولَمْ يتزوَّدْ لمعَادِه، ولم يتأهَّبْ للمَوتِ، ولم يَخْضَعْ للمَوتِ، ولم يتشمَّرْ للمَوتِ، ولم يتَزيَّنْ للمَوتِ، وتزيَّن للدنيا.. هيه.. وقعدَ يحدِّثُ ـ يعني: نفسَه ـ واجْتَمعوا حَولكَ يكتبونَ عنكَ.. بَخٍ.. فقد تفرَّغتَ للحديث، ثم قال: هاه ـ وتنفَّسَ طويلاً ـ ويْحَكَ: أنتَ تُحسنُ تحدِّثُ، أو أنتَ أهلٌ أن يُحملَ عنكَ.. استَحِ يا أحمقُ بينَ الحُمقَانِ.. ولَولاَ قلَّةُ حيائكَ وسفَاهةُ وَجْهِكَ ، مَا جلستَ تحدِّثُ وأنتَ أنتَ ـ أما تعرفُ نفسَكَ؟..أما تَذكُر ما كنتَ، وكيفَ كنتَ ؟..أما لو عرفوكَ ما جَلسوا إليكَ ولا كَتبوا عَنكَ ؟..ولا سَمعوا منكَ شيئاً أبداً..فيأخذُ في مثْلِ هذا، ثم ويْحَكَ،أما تَذكُرُ الموتَ ؟.. أما للموتِ في قلبك موضوعٌ؟.. أما تَدْري متى تُؤخذُ فيُرمَى بكَ في الآخرة، فتَصير في القَبْر وضيْقه ووَحْشَته، أما رأيتَ قبراً قطُّ ؟.. أما رأيتَ حينَ دَفنوه ؟.. أما رأيتَ كيفَ سَلوهُ في حُفرته وهَالوا عليه التُّرابَ والحجَارة ؟ ».. ثم قال:

« مَا ينبغي لكَ أنْ تتكلَّمَ بفَمكَ كلمةً ـ يعني: نفسه ـ تَدْري مَنْ تَكلَّم بفقْه كلِّه ؟.. عمرُ بن الخطّاب.. كان يُطعمهم الطيِّبَ، ويأكلُ الغليظَ.. ويكسُوهم الليِّن، ويلبسُ الخشِنَ، وكانَ يُعطيهم حقُوقَهم

ويَزيدهم.. أعْطى رجلاً عَطاءَه أربعة آلافِ درْهم، وزاده ألفاً..فقيل له: ألاَ تَزيدُ ابنكَ كما زِدتَ هذا ؟.. قال: إن أبا هذا ثَبتَ يومَ أحُدٍ، ولم يثبتْ أبو هذا».

وعن محمد بن يزيد بن خنيس، قال: قال رجل:

مررت ذات يوم بالفضيل بن عياض، فقلت له:

أوصِني بوصيةٍ ينفعني الله بها.

قال: «يا عبدَ الله: أخفِ مكانَكَ، واحفَظْ لسانَكَ، واستَغفِرْ لذنبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ كما أمَركَ».

وقال إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« تزيَّنتَ للناسِ، وتَصنَّعتَ لهم، وتهيَّأتَ، ولم تزلْ تُرائي حتَّى عَرفوكَ، فقالوا: هو رجلٌ صالحٌ، فأكرموكَ، وقَضوا لكَ الحوائجَ، ووسَّعوا لكَ في المجلِس، وعظَّموك.. خيبةٌ لكَ، ما أسوَأ حالَكَ إنْ كانَ هذا شأنَكَ ».

وقال الفضيل:

« تَرْكُ العَملِ مِنْ أجْلِ الناسِ هو الرِّياءُ، والعَملُ مِنْ أجْلِ الناسِ هُو الشِّرْك ».

وقال:

« مَنْ وُقِيَ خَمْساً فقدْ وُقِيَ شَرَّ الدُّنيا والآخرة: العُجْبُ، والرِّياءُ، والكِبْرُ، و الإزْراء، والشَّهْوَة ».

وقال:

« لَئِنْ يطلبُ الرجلُ الدُّنيا بأقْبَحِ ما تُطلبُ بهِ، أحْسَنُ مِنْ أنْ يَطْلُبَها بأحْسَنِ ما تُطْلَبُ به الآخِرةُ ».

وكان الفضيل ـ رحمه الله ـ يقول:

« سيِّدُ القَبيلةِ في آخرِ الزَّمانِ مُنافِقُها، وهناكَ يُحْذَرُ مِنْهم لأنَّهم داءٌ لا دواءَ له ».

وكان الفضيل مَعْنِيّاً بالصداقة والصَّديق، يتحدث عن ذلك فى عدة مناسبات.. ومن كلامه فى ذلك ما يلى:

عن يحيى بن يحيى قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« إذا خَالَطتَ فخَالِطْ صاحبَ الخُلُقِ الحسَنِ، فإنَّه لا يَدْعُو إلا إلى خَيرٍ، وَصاحِبُهُ مِنْهُ فى راحة.. ولا تُخالِطْ سيِّئَ الخُلُقِ، فإنَّه لا يَدْعُو إلا إلى شَرٍّ، وصاحِبُهُ مِنْهُ فى عَنَاءٍ ».

وكان رحمه الله يقول:

« مَنْ طَلَبَ أخاً بلا عَيْبٍ صَارَ بلا أخٍ ».

وكان يقول:

« لا تُؤَاخِ مَنْ إذا غَضِبَ مِنْكَ كَذَبَ عليكَ ».

وكان يقول:

« قد بَطَلَت الأخوَّةُ اليومَ.. كان الرجلُ يَحْفَظُ أولادَ أخيهِ مِنْ بَعْدِهِ ويَعُولهم حتَّى يبلغوا رُشْدَهُمْ كأنَّهم أولادُه ».

وكان يقول:

« ليسَ بأخيكَ مَنْ إذا منَعْتَهُ شيئاً طَلَبَهُ غَضِبَ مِنْكَ ».

ومن كلماته:

« مَنْ أظهَرَ لأخِيه الوُدَّ والصَّفَاءَ بلسَانه، وأضْمَرَ له البُغْضَ والعَدَاوةَ.. لَعَنَهُ الله، وأصَمَّهُ وأعْمَى بَصَرَ قَلْبِه ».

وعن عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« أنا لا أعْتَقِدُ أخَا الرَّجلِ فى الرِّضَا، ولكنْ أعْتَقِدُ أخَاهُ فِى الغَضَبِ» .

وقال عبد الصمد بن يزيد: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« إنما سُمِّىَ الصَّديقُ لتَصَدُّقِه، وإنما سُمِّىَ الرَّفيقُ لِتَرفُّقِه، ليسَ فى السَّفر وحدَهُ، بلْ فى السَّفَرِ والحَضَرِ ».

قلنا: يا أبا علىٍّ فَسِّرْ لنا هذا.

قال: « أمَّـا الصَّـديقُ فـإذَا رأيتَ منه أمْـراً تكْرَهُهُ فـعظْهُ ولا تَدَعْـهُ يتَـهَوَّرُ، وأمَّـا الرَّفيقُ فـإنْ كنتَ أعقـلَ منهُ فارْفُـقْهُ بعَـقْلكَ، وإنْ كنتَ أحْلَمَ منهُ فـارْفُقْـهُ بحلْمكَ، وإنْ كنتَ أعْلَمَ منهُ فـارْفُقْـهُ بعلْمِك، وإنْ كنتَ أغْنَى منهُ فارْفُقْهُ بمالكَ».

وقال الفضيل :

« المؤمنُ يـهمهُ الهَـرَبُ بذنْبه إلى الله ، يصـبحُ مَغْـمُومـاً ويُمسى مَغْمُوماً ».

وقال:

« حَسناتُكَ منْ عَدوِّكَ أكثرُ منها منْ صَديقكَ ».

قيل: وكيفَ ذلكَ يا أبا على ؟

قال: « إنَّ صَديقَكَ إذا ذُكرتَ بينَ يديه قال:عَافَاهُ الله. وعدوُّكَ إذا ذُكرتَ بينَ يديه يغتابكَ الليلَ والنهـارَ.. وإنما يدفعُ المسكينُ حَسناته إليكَ.. فلا تَرْضَ إذا ذُكـرَ بينَ يديكَ أن تقولَ: اللهُمَّ أهْلكْهُ ـ لا.. بل ادعُ له: اللهُـمَّ أصْـلحْـهُ، اللهُمَّ رَاجعْ به.. ويكـونُ اللهُ يعطـيـكَ أجرَ ما دَعَوتَ به.. فإنَّ مَنْ قالَ لـرجُلٍ: اللهُمَّ أهْلكْهُ ، فَقَدْ أعْطَى الشَّيطَانَ سُؤالَـهُ، لأنَّ الشَّيطانَ ،إنما يدورُ على هَلاكِ الخَلْق ».

وقال الفيض بن إسحاق: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« ليسَ فِي الأرضِ شيءٌ أشدَّ مِنْ تَرْكِ شهْوَةٍ » .

وكان يقول :

« لِكُلِّ شيءٍ دِيباجةٌ، ودِيباجةُ القُرَّاءِ تَرْكُ الغِيْبَةِ » .

وكان يكره لقاء الإخوان مخافة التزيُّن منه ومنهم.

وكان يقول:

« إذا اغتابَكَ عدوٌّ فهو أنفعُ لكَ مِنَ الصَّديقِ، فإنَّه كُلَّمَا اغتابكَ كانَ لكَ حسَنَاتُهُ » .

وعن عبد الصمد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« إذا ظَهَرتِ الغِيبةُ ارْتَفَعَتِ الأخوَّةُ في الدُّنيا، إنَّما مَثَلُكُمْ في ذلكَ الزَّمانِ مِثْلُ شيءٍ مَطْليٍّ بالذَّهبِ والفِضَّةِ، داخِلُه خَشَبٌ وخارِجُهُ حَسَنٌ » .

ومن كلماته:

« لِيَكُنْ شُغْلُكَ في نَفْسِك، لا في غَيرِكَ، ومَنْ كَانَ شُغْلُهُ في غَيرِهِ فَقَدْ مُكِرَ بِهِ » .

ومنها:

« أهْلُ الفَضْلِ في الدُّنيا، هُمْ أهْلُ الفَضْلِ في الآخِرة، مَا لَمْ يَروا فَضْلَهُمْ » .

وكان يقول:

« عالِمُ الآخرة علمُهُ مستُور، وعالِمُ الدُّنيا علمُهُ منْشُور، فَاتبعُوا عَالِمَ الآخِرة، واحذَروا عَالِمَ الدُّنيا أنْ تُجَالِسُوه، فإنَّه يَفْتِنُكُم بغُرُورِه وزَخرفتِه، ودَعواه العَملَ منْ غيرِ عَملٍ، أو العَملَ مِنْ غيرِ صِدْقٍ ».

وعن محمد بن زنبور قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« أعْلَمُ الناسِ باللهِ أخوفُهم لَهُ ».

وقال الفضيل:

« تَكَلَّمْتَ فِيمَا لا يَعْنِيكَ، نشَغَلَكَ عمَّا يَعْنِيكَ، ولَوْ شَغَلَكَ ما يَعْنِيكَ تَركتَ ما لا يَعنيكَ ».

وعن عبدِ الصمد قال: سمعتُ الفضيل يقول:

« يكونُ شُغْلُكَ فى نَفْسكَ، ولا يكونُ شُغلكَ في غَيرِكَ .. فمَنْ كانَ شُغله فى غيرِه فقدْ مُكِرَ بهِ ».

وقال الفضيل:

« لم يُدْرِكْ - عندنَا - مَنْ أدركَ بكَثْرة صِيَامٍ ولا صَلاةٍ، وإنَّما أدركَ بسَخَاءِ الأنفسِ، وسَلامةِ الصُّدورِ، والنُّصْحِ للأمَّةِ ».

وقال لرجل:

« ما يؤمِّنكَ أنْ تكونَ بارزتَ اللهَ بعَملٍ مَقَتَكَ عليه، فأغلقَ دُونَكَ أبوابَ المغفرةِ وأنتَ تَضحَكُ، كيفَ تَرى حالَكَ؟».

وحدَّث خالد بن خداش قال: قال الفضيل:

« ممَّنْ أنت؟ ».

قلت: مُهَلبيٌّ.

قال:

« إنْ كنتَ رَجُلاً صَالحاً فأنتَ الشَّريفُ، وإنْ كنتَ رجلَ سُوءٍ فأنتَ الوَضيعُ كلَّ الوَضيع ».

ثم قال: حدَّثني منصور، عن مجاهد، قال:

« إنَّ المؤمنَ إذا ماتَ بَكَتْ عليهِ الأرضُ أربعينَ صَباحًا ».

وقال الفضيل:

« لئنْ أطلبُ الدُّنيا بِطَبْلٍ ومِزمَارٍ، أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أطْلُبَهَا بالعِبَادة».

وفي نهاية المطاف في مجال الأخلاق والفضيل، نقول مع الشيخ أبي نعيم ـ صاحب «الحلية» ـ:

« كَلامُ الفُضَيلِ ومَـوَاعِظُه تَكْثُرُ، اقْتصرْنَا مِنهَـا علَى مَا أَمْلَينا، نَفَعَنَا اللهُ وإيَّاكُمْ بِهَا ».

ونروى ما رواه محمد بن زنبور قال: سمعت رجلاً يقول:

رأيت الفضيل بن عياض فى المنام، فقلت له: أوصنى .

فقال:

« عَلَيكَ بأداءِ الفَرَائضِ، فإنّى لَمْ أَرَ ـ قَطُّ ـ مِثلَها ».

***

الفصل الثامن

التَّصـــوُّف

لقد التزم الفضيل - التزامًا كامـلاً - مبدأ الصوفية الصادقين، وهو أن التصوف مؤسَّس على الشريعة ، قائم بها.

إنه منبثق عنها، ومستند إليها، فى كل خطوة من خطواته.

والتصوف معرفة، وسلوك إلى المعرفة.

وأسمى أنواع المعرفة هى معرفة الله تعالى.

وعن معرفة الله، يقول الفضيل:

« مَنْ عَـرَفَ اللهَ مِنْ طريقِ المحبَّـةِ - بغَيرِ خَوفٍ - هَلَكَ بالبَسْطِ والإِدْلاَلِ.

ومَنْ عَرَفَهُ عَنْ طريقِ الخوفِ انْقَطَعَ عَنْهُ بالبُعْدِ والاسْتِيحَاش.

ومَنْ عَرَفَهُ مِنْ طَرِيقِهِما معاً أَحَبَّهُ وقَرَّبَهُ، ومَكَّنَهُ وعَلَّمَهُ.

ومَنْ عَرَفَ اللهَ حقَّ المعْرِفةِ فَهُوَ بعيدٌ عَنِ الضَّلال .

ومَنْ أَنْزَلَ الموتَ حقَّ مَنْزلتهِ لمْ يَغْفَلْ عَنْهُ » .

ما الطريقُ إلى ذلك؟

إن الطريق إلى ذلك يتـسلسل بادئاً من الإقبـال على الله سبـحانه وتعالـى. . والإقبال على اللـه يهـون من أجلـه كل شـىء لأن غايتـه لا تعدلها غاية.

يروى الفيض بن إسحاق أنه سمع الفضيل بن عياض يقول:

« كنتُ - قبلَ اليومِ - أعْـجَبُ ممـنْ يُعطى، وأنا اليومَ لا أعْـجبُ،

لأنَّ الذى يطلبُ ليسَ صَغيراً.. وأنتَ لو بَلغكَ أنَّ رجلاً تَصدَّقَ بألفِ درهَمٍ منْ ماله لتَعَجَّبْتَ، أو يكونُ صَاحبَ غَزْوٍ أو رِبَاط لتَعَجَّبْتَ، وما تَدْرِى ما تَطلبُ لو كنتَ تعقلُ هذا، ولكنكَ لا تَعْقلُه.. والله لو أخبرتُ عَنْ جبريلَ وإسرافيلَ بشدَّة اجتهاد ما عَجِبتُ، وكان ذلكَ قَليلاً عندمَا يَطلبونَ.. أتَدرِى أىَّ شىءٍ يَطلبون ؟.. وأىَّ شىءٍ يُريدون ؟.. رِضَا ربِّهم ـ عزَّ وجلَّ ».

الخلاص :

ولقد سأل عبد الله بن مالك الفضيل قائلاً:

يا أبا علىّ: ما الخلاص مما نحن فيه ؟

فقال له:

«أخْبِرنى.. مَنْ أطاعَ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ هَلْ تَضرهُ مَعْصيَةُ أحدٍ ؟».

قال: لا.

قال: « فَمَنْ عَصَى اللهَ سُبْحَانه، هَلْ تَنْفَعهُ طَاعَةُ أحَدٍ ؟».

قال: لا.

قال: « فَهُوَ الخَلاصُ إنْ أرَدْتَ الخَلاصَ ».

الإخلاص :

وهذا الخلاص يبدأ أول ما يبدأ بالإخلاص.. والفضيل يتابع ـ فى ذلك ـ القرآن الكريم، والسنة الشريفة.. يقول الله تعالى:

﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾[1].

ويقول الله تعالى - في حديث قدسي -:

« أنا أغْنَى الشُّرَكاء عَنِ الشِّرْك.. فمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أشْرَكَ فيه غَيْرِي ، فأنا مِنْهُ بَرِيءٌ، وهُوَ للذي أشْرَكَ »[2].

ويقول رسول الله ﷺ :

«إن الله - تبارك وتعالى - يقول:

« أنا خيرُ شَرِيك، فمَنْ أشْرَكَ مَعي شَرِيكاً فهو لشَرِيكي، يا أيُّها الناسُ أخْلِصوا أعمَالَكُم، فإنَّ الله تَعالى لا يَقبلُ مِنَ الأعْمَالِ إلا مَا خَلَصَ لَهُ.. ولا تَقُولوا: هذه لله وللرَّحِم، فإنها للرَّحِم، وليسَ لله فِيها شيءٌ، ولا تَقولوا: هذه لله ولوجُوهِكم،فإنها لوجُوهِكم وليسَ للهِ منْها شيءٌ »[3].

ويقول ﷺ :

« مَنْ فَارَقَ الدُّنيا علَى الإخْلاَص لله وحدَه لا شَريكَ لَهُ، وأقَامَ الصَّلاةَ، وآتَى الزَّكَاةَ، فَارَقَها واللهُ عنْه رَاضٍ »[4].

---

(١) سورة الزمر: ٣.

(٢) رواه ابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي، ورواته ثقات .

(٣) رواه البزار بإسناد لا بأس به ، والبيهقي ، واختلف في إرساله ورفعه .

(٤) رواه ابن ماجه والحاكم .

والفضيل ـ متابعاً لذلك ـ يقول:

« كَانَ يُقَالُ: لا يَزَالُ العَبْدُ بخَيرٍ، ما إذا قَالَ قالَ لله، وإذا عَمِلَ عَمِلَ لله ».

ويقول:

« لَئِنْ أطْلُبُ الدُّنيا بطَبْلٍ ومِزْمَارٍ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أطْلُبَها بالعِبَادةِ».

وكان في شعوره دقة بالنسبة للمعنى الصادق للإخلاص.. إنه يقول:

«لَوْ قيلَ لي: أميرُ المؤمنينَ داخِلٌ عليكَ، فسَوَّيتُ لحيَتي.. خِفْتُ أنْ أُكْتَبَ في جَرِيدةِ المنافقينَ ».

ويعبِّر الفضيل عن صلة الإنسان بالله، فيقول لرجل:

« لأُعلمنَّكَ كلمةً ـ خيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها ـ والله لَئِنْ عَلِمَ اللهُ منْكَ إخراجَ الآدميينَ مِنْ قلبكَ حتَّى لا يكونَ فيكَ مكانٌ لغَيرِه؛ لم تَسْألْهُ شيئاً إلا أعْطَاكَ ».

الخوف:

هذا الإخلاص لا يتأتَّى أن يسير الإنسان في الحياة على صراطه المستقيم، ما لم يكن عنده خوف من الله سبحانه وتعالى.

يروى إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« أعْلَمُ النَّاسِ بالله أخْوَفُهم لَهُ ».

« وإنَّ رَهْبَةَ العَبْدِ للهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ علَى قَدْرِ علْمه به ».

وفى هذا: يتابع الفضيل رسول الله ﷺ، إذ يقول:

« أنَا أتْقَاكُم للهِ وأشَدُّكُمْ خشيةً لَهُ ».

وإن من خاف الله تعالى ـ كما يقول الفضيل ـ لم يضره شىء، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد.

ولقد كان الخوف طابعًا للفضيل، يقول إبراهيم بن الأشعث خادم الفضيل:

« ما رأيتُ أحدًا كانَ اللهُ فى صَدْرِه أعظمَ منَ الفُضَيل.. كانَ إذا ذُكِرَ اللهُ عندَه، أو سَمِعَ القرآنَ.. ظهرَ به منَ الخوفِ والحزنِ، وفاضتْ عَيناهُ.. فبكَى حتَّى يَرحمَه مَنْ بحضْرَتِه ».

الخوف والرجاء:

ومع ذلك فإن الرجاء من الأمور التى ينبغى للإنسان أن يأمل فيها باستمرار، وعن الخوف والرجاء يقول الفضيل:

« الخوفُ أفْضَلُ منَ الرَّجَاء، مَا دَامَ الرَّجُلُ صَحيحاً.. فَإذَا نَزَلَ بِهِ الموتُ فالرَّجَاءُ أفْضَلُ مِنَ الخَوفِ ».

ويقول:

« إذَا كانَ فى صِحتِّه مُحْسناً عَظُمَ رَجَاؤهُ عندَ الموت، وحَسُنَ ظَنُّهُ. وإذَا كانَ فى صِحَّتِه مُسيئاً سَاءَ ظَنُّهُ عندَ الموتِ، ولَمْ يَعْظُمْ رَجَاؤه ».

العبادة:

وإذا شعر الإنسان بالخوف من الله، والرجاء فيه.. دفعه ذلك إلى العبادة..

ويروى الفضيل - فى العبادة - بسنده، عن عمر بن الخطاب، ﷺ، أنه قال:

« الشِّتَاءُ غَنِيمَةُ العَابِدِ »[1] .

وسار الفضيل فى حياته على أنها عبادة.. لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] .

أى: ليصيِّروا الحياة عبادة فى جميع حركاتها وسكناتها، فى المصنع والمعمل والحقل والتدريس والوظيفة - أى أن الحياة يجب أن تطبع بطابع العبادة فتكون لله وحده فى جميع زواياها، وتكون بذلك عبادة.. وإن رسول الله ﷺ يشير إلى ذلك فى الحديث التالى:

« عن أبى ذر ﷺ أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يا رسول الله.. ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم..

---

(١) أى: لطول ليله واتساع فرصة العبادة فيه.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

قال: « أَوَ لَيْسَ قَدْ جعلَ اللهُ لَكُم ما تَصَّدَّقون به ؟.. إنَّ بكلِّ تسبيحة صَدَقَةً، وكُلُّ تكْبيرةٍ صَدَقَةٌ، وكُلُّ تحْميدة صَدَقَةٌ، وكُلُّ تَهليلة صَدَقَةٌ، وأمْرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونَهْىٌ عن منكرٍ صَدَقَةٌ، وفى بُضْعِ أَحَدِكم صَدَقَة ».

قالوا: يا رسول الله، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

قال: « أرأيتُم لو وَضَعَها فى حَرامٍ أكان عليه فيها وِزْر ؟.. فكَذَلِكَ إذا وَضَعها فى الحلالِ كانَ له أجْرٌ »[1].

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال:

«جاءنى رسول الله ﷺ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى فقلت: يا رسول الله.. إنى قد بلغ بى من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة لى. أفأتصدق بثلثى مالى ؟.. قال: لا.. قلت: فالشطر[2] يا رسول الله ؟.. فقال: لا. قلت: فالثلث يا رسول الله ؟.. قال:

«الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثيرٌ - أو كبير - إنَّكَ إنْ تَذَرْ وَرثتكَ أغنياءَ خيرٌ مِنْ أنْ تَذَرَهُمْ عالةً يتكفَّفونَ الناسَ، وإنَّكَ إنْ تُنْفِقْ نفقةً تبتغى بِهَا وَجْهَ اللهِ إلاّ أُجِرْتَ عليها حتَّى ما تَجعلُ فِى فِى (فم) امرأتك».

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) الشطر : النصف .

قال: فقلت: يا رسول الله.. أخلف بعدَ أصحابي؟. قال:

«إنـك لنْ تخـلفَ فتعمـلَ عَملاً تَبـتغِي به وَجْـهَ اللـه إلا ازددتَ به درجــةً ورفـعــةً، ولعلـكَ أنْ تخـلفَ حـتَّى يـنتـفعَ بـكَ أقـوامٌ ويُضَـرَّ بكَ آخرونَ.. اللـهُمَّ أمْـضِ لأصْحَـابي هِجْـرتَهم ولا تَردَّهُمْ على أعْقَابِهم»[1].

وقد كان الفـضيل من كبار المتـعبدين، وكانت لياليـه تسير على النسق التالي:

« كان يُلْقَى لَـهُ حَصيـرٌ بالليلِ فى مَسْـجدهِ فيُـصلِّى من أوَّلِ الليلِ ساعـةً، ثم تَغلبُه عَينُه فـيُلقِى نَفْسَه على الحَصـيرِ فينامُ قليـلاً ثمَّ يقومُ فإذا غَلَبَهُ النَّوم نَام؛ ثمَّ يَقُوم، وهكَذا حتَّى يُصْبِحَ ».

ويقول الفضيل:

« إذا لَمْ تَقْـدرْ علَى قِيَـامِ الليلِ وصِيَـامِ النَّهارِ فـاعلمْ أنكَ مَـحْرومٌ مُكبَّلٌ، كبَّلَتْكَ خَطيئَتُكَ ».

وكان الفضيل يصف نفسه حينما يقول:

« أدركتُ أقْـوَامـاً يَستَـحيـونَ من الـلهِ فى سَـوادِ الليلِ من طُولِ

---

(١) متفق عليه.

الهَجْعَة.. إنَّما هُوَ علَى الجَنْب، فَإِذَا تحرَّكَ قالَ لنفسه : لَيْسَ هذا لكِ. قُومى خُذِى حَظَّكِ مِنَ الآخِرة ».

الذِّكْر:

ومن العبادة الذكر:

ويروى إبراهيم بن الأشعث ـ الذى كان يلازم الفضيل ملازمة تامة ـ عن الفضيل قوله:

« الذَّاكِرُ سَالِمٌ مِنَ الإثْم ـ مَا دَامَ يَذْكُرُ اللهَ ـ غَانِمٌ مِنَ الأجْرِ ».

والصوفية ـ على وجه العموم ـ يُنزلون الذكر منزلة سامية فى مجال العبادة.

يقول الإمام القشيرى:

« قال الأستاذ: والذِّكْرُ ركنٌ قَوىٌّ فى طريق الحقِّ سبحانه وتعالى.. بل هو العُمْدَةُ فى هذا الطريقِ، ولا يَصِلُ أحدٌ إلى الله إلا بدَوام الذكر»..

والصوفية ـ فى ذلك ـ يتابعون رسول الله ﷺ متأسِّين به. . إنه ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقول ـ فى الحديث القدسى ـ:

« أنا معَ عَبْدِى إذا هُوَ ذَكَرَنى ، وتَحرَّكتْ بِى شَفَتَاهُ »[1].

(١) رواه ابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه .

وقال رجل للرسول ﷺ : يا رسول الله . . إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به ؟ . .

قال : « لا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ الله »(١).

وقال ﷺ :

« مَثَلُ الذِي يَذْكُرُ اللَّهَ والذِي لا يَذْكُرُ الله.. مَثَلُ الحَيِّ والميِّت»(٢) . .

ولقد كان الفضيل معنياً برواية الأحاديث الصحيحة في الذكر . .

ومما رواه ﷺ في ذلك:

١ـ روى الفضيل، عن الثوري، عن أبي صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ، قال:

« ما جلسَ قومٌ قَطُّ، فتفرَّقوا ولمْ يذكُروا اللهَ، ولم يُصَلُّوا على النبيِّ ﷺ ، إلا كانتْ عليهم تِرَةٌ يومَ القيامةِ.. إنْ شاءَ عَفَا عنْهم، وإنْ شاءَ عَذَّبَهم »(٣).

٢ـ وحدَّث الفضيل ، عن الأعمش ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى ـ في الحديث القدسي ـ:

---

(١) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) مشهور من حديث الثوري .

« مَنْ ذَكَرَنى فى نَفْسِه ذكرتُه فى نَفْسى، وإنْ ذَكَرَنى فى مَلأ ذَكَرتُه فى مَلأ خير منْهُ، وإنْ تقرَّبَ منِّى شبْرًا تقرَّبتُ إليه ذِرَاعاً، وإنْ تقرَّبَ إلىَّ ذِراعًا تقرَّبتُ إليه بَاعًا، وإنْ أتَانى يَمْشى أتيتُه هَرْوَلَةً »[1].

٣ ـ وروى الفضيل بن عياض، عن سليمان الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إنَّ لله ملائكةً ـ فَضْلاً عن كُتَّابِ الناسِ ـ يَطوفُون فى الطريقِ ويَبتغونَ الذِّكْرَ.. فإذا رأوا قوماً يذْكُرونَ الله تَنَادَوا: هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكم.

قَال: فيَحُفُّونَهُمْ بأجْنحَتِهم إلى عَنان السَّماء.. فيقول اللهُ ـ وهو أعْلَمُ ـ: ما يقولُ عبادى ؟

قالوا: يَحْمَدُونَكَ ويُسبِّحونكَ ويمجِّدونكَ.

فيقول: هَل رَأَوْنِى؟

فيقولون: لا.

فيقول: كيفَ لو رَأَوْنِى ؟

فيقولون: لو رَأَوكَ كانوا أشدَّ لكَ عبادةً، وأشدَّ لكَ تمجيدًا، وأكثرَ لكَ تسبيحاً.

فيقول: فما يَسْألونى ؟

---

(١) صحيح من حديث الأعمش.

فيقولون: يَسْألونكَ الجنَّة.

فيقول: وهَلْ رَأوها ؟

فيقولون: لا.. والله يا ربُّ ما رَأوها.

فيقول: فكيفَ لو رَأوها ؟

فيقولون: لو أنَّهم رَأوها كَانوا أشدَّ عَليـها حِرْصاً، وأشدَّ لَها طَلَباً، وأعْظَمَ فيهَا رَغْبةً.

فيقول: فَمِمَّ يَتعوَّذون ؟

فيقولون: يتعوَّذون مِنَ النَّار.

فيقول: وهَلْ رَأوها ؟

فيقولون: لا والله ما رَأوها.

فيقول: فكيفَ لو رَأوها ؟

فيقولون: لو رَأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مَخافة.

فيقول: أُشْهِدُكُم أنِّي قد غفرتُ لَهُم.

فيقول مَلَكٌ من الملائكةِ: فيهم فلانٌ ليسَ مِنْهم، إنما جاءَ لحاجة.

فيقول الله تعالى: هُمُ القَومُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهم» [1]..

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

الورع:

وإذا أقبل الإنســان على الله سبحــانه وتعالى، وصدق فى عــبدته وفى ذكره تحرَّج فى حياته وتورَّع عن المحارم..

- ولقد سئل الفضيل عن الورع، فقال:

« اجْتنَابُ المحَارِم ».

وقال: « أشَدُّ الوَرَعِ فِى اللسَانِ ».

الزهد:

إذ أقبل الإنســان على الله سبــحانه وتعــالى، وصَدَق فى عــبادته وذكره، وتــحرَّج فى حــياته، وتورَّع عن المــحارم، زَهِدَ فى الدنيــا (الشهوات)..

ولقد سئل الفضيل عن الزهد في الدنيا، ما هو ؟

فقال:

« القَنَاعَةُ، وَهِىَ الغِنَى ».

وقال فى توجيه الناس إلى الزهد:

« إنَّ زهادةَ الإنسانِ في الدُّنيا، على قَدْرِ رغبتهِ فى الآخِرةِ ».

وقال:

« لَوْ زَهِدَ العُلماءُ فى الدُّنيا، لخَضَعتْ لَهُمْ رِقَابُ الجَبابِرَةِ ».

وكان يقول:

« مَنْ أحَبَّ أنْ يُسْمَعَ كَلامُهُ إذا تَكلَّم فَلَيْسَ بِزَاهِدٍ ».

ويصل الأمر بالفضيل أن يقول:

« جُعل الخيرُ كلُّه فى بيتٍ، وجُعل مِفتاحُه الزُّهْدَ فى الدُّنيا ».

ولقد كان الفضيل يعني بذلك: الزهد فى الدنيا من أجل الله سبحانه وتعالى.. ألاَّ تشغل الدنيا الإنسانَ عن الله.. ألاَّ تستعبده وتملكه وتسترقّه، فيصبح عبداً للدنيا.. والله يحب أن يكون عبداً له.

والدنيا التى ينفر منها الصوفية: هى عالم الأهواء والنزوات والشهوات.

ويقول الفضيل عن الدنيا:

« لا يَسْلَمُ لَكَ قَلْبُكَ حتَّى لا تُبالِى مِنْ أكلِ الدُّنيا ».

التواضع:

ومن الخلق الصوفى: التواضع.. وللفضيل تعريف جميل للتواضع.. يقول إبراهيم بن الأشعث:

« سألت الفضيل: ما التواضع ؟. فقال:

« أنْ تخضعَ للحقِّ، وتنقادَ له.. ولو سَمِعْتَهُ مِنْ صبيٍّ قَبِلْتَهُ مِنْهُ، ولَوْ سَمِعْتَه من أَجَلِّ الناسِ قَبِلْتَهُ مِنْهُ ».

الصبر:

ولقد سُئل الفضيل: ما الصبر على المصيبة ؟.. فقال:

« أنْ لا تَبُثَّ ».. أى: لا تَشْكُو..

التوكل:

والتوكل فى عرف الصوفية الصادقين: هو اتخاذ الأسباب كاملة غير منقوصة، مع الثقة فى الله قبل اتخاذ الأسباب، وفى أثنائها، ومن بعدها.. فإليه سبحانه يرجع الأمر كله..

ويقول الفضيل فى صفة المتوكل:

« المتوكِّل الواثِقُ باللهِ، لا يَتَّهِمُ ربَّهُ، ولا يَخَافُ خِذْلاَنه، ولا يَشْكُوه».

المحبة :

ويصل الصوفى فى معراجه إلى الله سبحانه وتعالى إلى المحبة:

يروى أبو عبد الله الساجي، أن رجلاً سأل الفضيل بن عياض فقال:

« يا أبا علي: متى يبلغ الرجل غايته من حب الله تعالى ؟ ».

فقال له الفضيل:

« إذَا كانَ عَطَاؤهُ ومَنْعهُ إيَّاكَ عِنْدَكَ سَوَاءٌ، فَقَدْ بلَغْتَ الغَايَةَ مِنْ حُبِّه ».

وروى الحسين بن زياد ، قال:

« أخذ الفضيل بن عياض بيدى، فقال:

« يا حُسَين: يَنزِلُ اللهُ تَعالى كلَّ ليلةٍ إلى سَماءِ الدُّنيا، فيقول :

«مَن ادَّعى مَحبَّتى إذا جَنَّهُ الليلُ نَامَ عَنِّى!!.. ألَيْسَ كلُّ حبيبٍ يحبُّ خلوةَ حبيبِه.. هأنذا مُطَّلِعٌ على أحبَّائى.. إذا جَنَّهم الليلُ مثلت نَفْسى بينَ أعْيُنِهم، فَخَاطَبونى على المشَاهَدَةِ، وكلَّمونى على حُضُورٍ، غداً أقِرُّ أعينَ أحبَّائى فى جنَّاتى».

أما حقيقة المحبة، فقد قال الفضيل بشأنها:

«حقيقةُ المحبَّةِ: إيثارُ المحبوبِ على الكونينِ فى القُربِ والبُعد».

الرضا:

والرضا: منزلة وَازَنَ كثير من الصوفية بينها وبين المحبة، وفضَّلوها على المحبة..

وعن الرضا يقول الفضيل:

«دَرجةُ الرِّضَا عن اللهِ - عزَّ وجلَّ - درجةُ المقرَّبينَ، ليسَ بَيْنَهُم وبينَ اللهِ إلا رَوْحٌ وريْحَان».

***

خَاتِمَة

لقد أدى أعلام العلماء واجبهم فى تقدير الفضيل - رحمه الله - وفيما يلى بعضٌ من كثير:

يذكر صاحب «الجواهر المضيئة»[1]:

«الفُضَيل بن عياض بن مَسْعود بن بِشْر، أبو علىٍّ: الإمَام الربَّانىُّ التميمىُّ اليربوعىُّ الزاهد، أحد صُلَحاء الدنيا وعُبَّادها».

وذكر الصيمرى أنه أحد مَنْ أخذ الفقهَ عن **أبى حنيفة**، وروى عنه الإمام **الشافعىُّ**، فأخذَ عن إمامٍ عظيمٍ، وأخذَ عنه إمامٌ عظيمٌ، وهو إمامٌ عظيمٌ، نَفعنَا اللهُ بهم.. آمين.

وروى له إمامان عظيمان: **البخارى، ومسلم.**

وروى أبو وهب محمد بن مزاحم عن ابن المبارك:

« وأمَّا أوْرَعُ النَّاسِ ففُضَيلُ بنُ عِيَاض ».

وقال الهيثم بن جميل، عن شريك:

« لَمْ يزلْ لكلِّ قومٍ حُجَّةٌ فى زَمَانِهم، وإنَّ فُضَيلَ بنَ عياضٍ حُجَّةٌ لأهْلِ زمانِه ».

وقال بشر بن الحارث :

« عشرةٌ كانوا يأكلونَ الحَلالَ، لا يدخلُ بطونَهم غيرُه، ولو استَفّوا التُّرابَ، فذَكَرهُ فِيهم ».

---

(١) جـ١ ص ٤٠٩.

ويقول صاحب « الكواكب الدرية » عنه:

« التَّميمىُّ، الخُراسَانىُّ، شَيخُ الحَرَم، وكانَ إمَامًا ربَّانيـاً صَمَدَانياً قَانِتًا زَاهِداً عَابِدًا، عَظِيمَ الشَّأنِ، شَدِيدَ الخَوْفِ، دائمَ الفِكْرِ ».

ويقول عنه ابن سعد:

« كان نَبِيلاً، فَاضِلاً، عَابِدًا، ورَعًا »

أما صاحب «ميزان الاعتدال»[1] فإنه يقول عنه:

« فُضَيل بنُ عِيَاض الزَّاهِد، شيـخُ الحَرَم، وأحدُ الأثْبَاتِ، مُـجْمَعٌ على ثِقَتِه وجَلالته، فالفُضَيل مِنْ مشَايِخِ الإسلام ».

وقال الذهبى وغيره:

« كان سَيِّداً، عَابِدًا، وَرِعاً، زَاهِـدًا، إمَاماً رَبَّـانيًا، عَـالماً فَـقِيـهاً، ونَاهِيكَ بمنْ يقولُ ابنُ المبَارَكِ ﷺ فـيه: ما بَقِىَ عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ أفْضَلُ مِنْهُ ».

ويقول عنه صاحب «تقريب التهذيب» [2] :

« فُـضَـيل بنُ عِـيَاضِ بـنُ مَـسْـعـود التَّـمِـيـمىُّ، أبو علىٍّ، الزَّاهِدُ، المَشْهُورُ، أصْلُه مِنْ خُرَاسَـان، وسكنَ مكَّةَ، ثقةٌ عابِدٌ إمامٌ، مات سَنةَ سبعٍ وثمانينَ ومائةٍ ».

---

(١) ميزان الاعتدال ونقد الرجال للذهبى جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) تقريب التهذيب جـ ٢ ص ١١٣

ويقول عنه ابن كثير فى «البداية والنهاية»:

« وُلِدَ بخُراسَان، بكُورة دينُور، وقَدِمَ الكوفةَ وهو كبيرٌ، فسَمِعَ بهَا الأعمشَ ومَنصورَ بن المعتمر، وعطاءَ بن السَّائب، وحُصين بن عبد الرحمن، وغيرَهم، ثم انتقلَ إلى مكَّة فتَعَبَّدَ بهَا، وكانَ حَسَنَ التِّلاوةِ، كثيرَ الصَّلاةِ والصِّيامِ، وكانَ سيِّداً جَليلاً ثقةً مِنْ أئمَّةِ الرِّوايةِ »[1].

***

والذى نحب أن نقوله ـ بعد هذا ـ هو أن حياة الفضيل إنما هى شعاع من نور يبدد الكثير من الشبهات الزائفة التى انتشرت هنا وهناك حول التصوف الإسلامى.

لقد كان الفضيل من أوائل الصوفية، لقد عاش فى القرن الثانى الهجرى، وكان عربيًا من قبيلة تميم، وكان عالماً من كبار علماء المسلمين، وكان يعيش من كسب يده.

إن حياته تكذِّب هؤلاء الذى يحاولون ـ فى تَعَسُّفٍ وفى زيفٍ ـ أن يجعلوا مصدر التصوف يونانياً:

أفلاطونية **أفلاطون**، أو أفلاطونية **أفلوطين**. لم تكن هذه أو تلك قد ظهرت فى العصر الذى عاش فيه، ولم يعرف الفضيل هذه

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٨ .

أو تلك، ولم يكن يدور بخلده أن يستمد التوجيه من أفلاطون أو أفلوطين .

وحياة الفضيل تكذّب هؤلاء الذين يقولون: إن مصدرَ التصوف المسيحيةُ، فقد كان الفضيل غارقاً فى التراث الإسلامى، فى ميراث محمد ﷺ ، فى الحديث، وفى القرآن، وفى آثار الرسول ﷺ ، وفى الوحى، ولم يكن بين جنبيه من المسيحية إلا ما ذكره القرآن عنها، أو ما ذكره الرسول ﷺ ، مفسرًا للقرآن، ومُبينًا له، وكان يقرأ ـ فيما يقرأ ـ:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

وكان يقرأ:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ

---

(1) سورة المائدة : ٧٣.

وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

وكان يقرأ عن ضلال أهل الكتاب وانحرافهم الشيء الكثير.. كان يقرأ:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٢].

وكان يقرأ هذا النداء الحق الرباني الإلهي الذي لم يَسْتَجِبْ له اليهود ولا النصارى، وهو حق واضح:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٣].

إن المسلمين كانوا يرون، في عهد الفضيل ـ من خلال القرآن ـ هذا الضلال الذي انغمس فيه أهل الكتاب، ويرون أنهم أخطأوا الحق وأنه ما دام الأساس الذي تقوم المسيحية عليه ـ إذ ذاك ـ باطلاً، فإن

---

(١) سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٨.

(٢) سورة التوبة : ٣٠.

(٣) سورة آل عمران : ٦٤.

كل ما يبنى عليه فهو باطل مثله، ولا يتأتى ـ إذن ـ أن يكون القرب من الله ـ وهو التصوف ـ قائماً على أساس باطل. والغريب أنه مع وضوح موقف المسلمين العام من المسيحية وأنها باطلة ، وأن الله يعبِّر عن بطلانها بأساليب فى غاية القوة، منها قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[1].

ورغم هذا فإنهم لا يتورَّعون عن اتهام الصوفية بالأخذ عن المسيحية.

إن الصوفية ما كانوا يستمدون حياتهم ـ لا، ولا قلامة ظفر ـ من باطل؛ لأنهم على يقين من أنه لا يمكن الوصول إلى الله إلا عن طريق الحق.

وحياة الفضيل تكذِّب هؤلاء الذين يقولون: إن نشأة التصوف إنما هى نشأة فارسية، وإن التصوف لا يتناسب مع الفطرة العربية، والذى يقول ذلك هم المستشرقون.

---

(١) سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥.

لقد كان الفضيل عربياً خالصًا وكان من أئمة الصوفية.

وحياة الفضيل تكذِّب هؤلاء الذين يريدون أن يقرنوا بين التصوف والجهل ، فقد كان الفضيل قمة فى العلم.

وهى تكذِّب أيضاً هؤلاء الذين يزعمون أن بين التصوف والشريعة سُوءَ تَفَاهُم، بل إن حياة الفضيل هى عبارة عن سلوك ملتزم للشريعة، وقد بيَّنا ذلك من قبل.. إن حياته إنما هى تحقيقٌ لقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

وهى تحقيقٌ واتِّباعٌ لقوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2] .

رحمه الله رحمة واسعة.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، فى البداية والنهاية، وفى كل نَفَسٍ ولمحةٍ إلى يوم الدين.

***

(١) سورة آل عمران : ١٠١.

(٢) سورة الأحزاب : ٢١.

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ صحيح البخارى.
٣ ـ صحيح مسلم.
٤ ـ المستدرك للحاكم النيسابورى.
٥ ـ صحيح ابن حبَّان.
٦ ـ صحيح ابن خزيمة.
٧ ـ سنن ابن ماجه.
٨ ـ سنن الترمذى.
٩ ـ سنن الدارقطنى.
١٠ ـ سنن النسائى.
١١ ـ السنن الكبرى للبيهقى.
١٢ ـ مسند البزار .
١٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير.
١٤ ـ صفة الصفوة لابن الجوزى.
١٥ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد.
١٦ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم.
١٧ ـ ميزان الاعتدال ونقد الرجال للذهبى.

١٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات للنووى.

١٩ ـ تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى.

٢٠ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى.

٢١ ـ الجواهر المضيئة لعبد القادر القرشى.

٢٢ ـ الطبقات للإمام الشعرانى.

٢٣ ـ الكواكب الدرية للمناوى.

***

فهارس الكتاب

أولاً: فهرس الآيات القرآنية .

ثانياً: فهرس الأحاديث الشريفة .

ثالثاً: فهرس الآثار والأقوال .

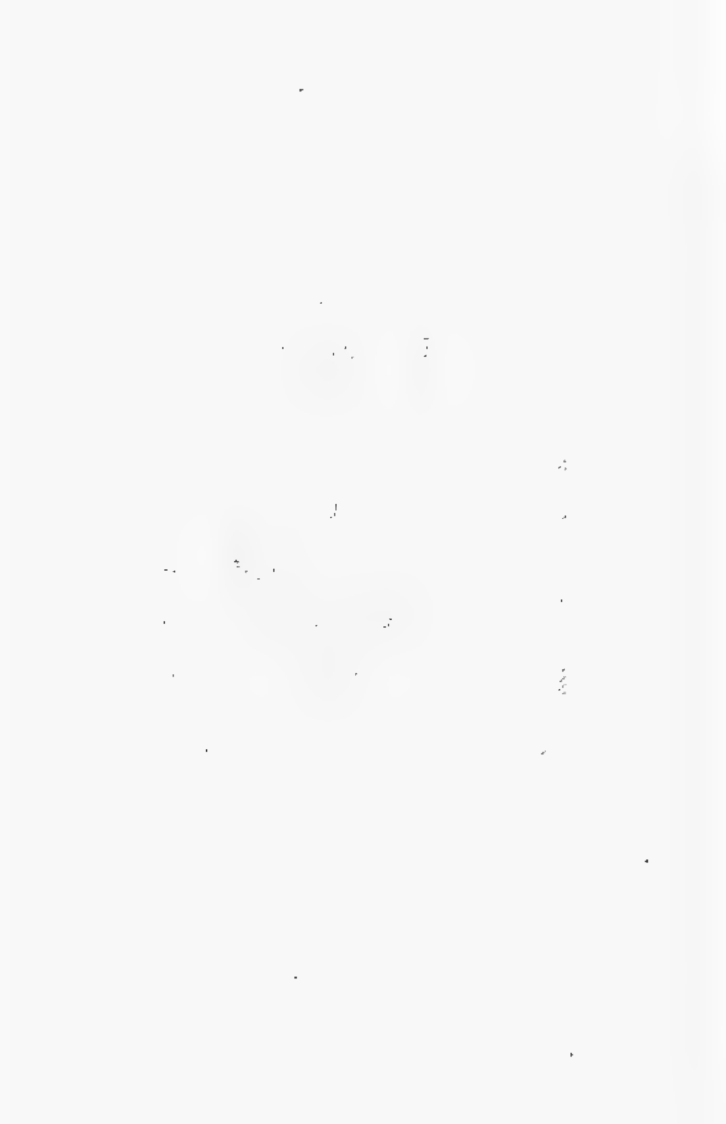
رابعاً: فهرس الأشعار.

خامساً: فهرس الأعلام.

سادساً: فهرس الأماكن والقبائل والغزوات.

سابعاً: فهرس الكتب والمطبوعات.

ثامناً: فهرس المحتويات .



أولا : فهرس الآيات القرآنية

❋ ❋ ❋

ثانياً : فهرس الأحاديث الشريفة

(م)

* * *

ثالثاً: فهرس الآثار والأقوال

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

* * *

رابعاً : فهرس الأشعار

* * *

خامساً: فهرس الأعلام

(غ)

(ف)

* * *

سادساً: فهرس الأماكن والقبائل والغزوات

* * *

سابعاً: فهرس الكتب والمطبوعات

* * *

ثامناً: فهرس المحتويات

* الفصل السادس :

* الفصل السابع :

* الفصل الثامن :

* * *



عـربيـة للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043



* يتناول هذا الكتاب حياة واحد من أئمة الإسلام، وأحد أقطاب الصوفية .. إنه الفضيل بن عياض الذى كانت حياته شعاعاً من نور يبدّد الكثير من الشبهات الزائفة حول التصوف الإسلامى .

* يشتمل الكتاب على دراسات قيّمة عن حياة الفضيل ، وعلاقته بالحكام والأمراء وأصحاب السلطان ، وموقفه من العلماء والقرّاء ، وتأثره الشديد بالقرآن ، وروايته للحديث الشريف ، وآرائه فى الإيمان والأخلاق والذكر والدعاء والصلاة والحج والأضحية والجهاد والخوف والرجاء والزهد والورع والإخلاص والصبر والتواضع والتوكل والرضا والمحبة والأمل ورؤية الله عزّ وجلّ ...

* وينتهى الكتاب بفهارس تفصيلية شاملة .

* ودار الرشاد إذ تقدّم لقرائها الكرام كتاب «الفضيل بن عياض » للإمام الأكبر فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود .. تدعو الله العلىّ القدير أن يتقبّله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به المؤمنين فى سائر أرجاء العالم الإسلامى .

الناشر